أريك فروم

مهمة فرويد

تحليل لشخصيته وتأثيره

ترجمة

د. طلال عتريسي



الطبعة الثانية

1423 هـ ـ 2002 م

مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع

بيروت ـ الحمرا ـ شارع اميل اده ـ بناية سلام ـ ص.ب. 113/6311

تلفون 791123 (01) ـ تلفاكس 791124 (01) بيروت ـ لبنان

بريد الكتروني majdpub@terra.net.lb

ISBN 9953-427-20-8

أريك فروم

مهمة فرويد

تحليل لشخصيته وتأثيره

ترجمة
د. طلال عتريسي

المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع

هذا الكتاب ترجمة :

Freud

Analyse de sa personnalité

et de son influence

Par

Erick Froum

Ed. P.U.F.

I ـ حبّـه للحقيقة وشجاعته

التحليل النفسي من اختراع فرويد ـ كان يلتذ هو أيضاً بالتأكيد على ذلك ـ إن الانجازات الكبرى للتحليل النفسي ، بـالاضافـة الى مثالبـه ، تحمـل في الواقـع سمة شخصيـة مؤسسه . لا مجـال إذن لأي شك بهـذا الصــدد : علينـا أن نبحث في شخصيــة فـرويــد عن أصـول التحليــل النفسي .

من أي نـوع من الرجـال كان فـرويد ؟ مـا هي القوى التي كـانت تدفعه للتصرف ، والتفكير ، والعمل بطريقة خاصـة به ؟ هـل كان ـ كـما يـدعي خصـومـه ـ مجـرد نمسـاوي منحط تمتـد جــذوره الى أجـواء الفسق والمجـون التي كانت تميـز عاصمـة النمسا في ذلـك الوقت ، أم أنـه ، كـما يؤكـد أتبـاعـه المخلصـين ، كـان استـاذاً عـظيـماً ، لم يعــرف أي ضعف شخصي ، وجـريئـاً لا يقبـل أي مسـاومـة في بحثه عن الحقيقـة ، محبـاً لعائلته ، طيباً مع تلاميذه، عـادلاً مع خصـومه ، خـالياً من أي إدعـاء أو أنـانية ؟ لا شـك ، أنـه لن يكـون مفيـداً ، لكي نفهم شخصيـة فـرويـد المركبة ، وتأثيرها على بنية التحليل النفسي ، ان نجعل منه بـطلاً ، أو أن نذله ونهينه . هذه المـوضوعيـة نفسها ، التي اكتشف فـرويد ضـرورتها في بداية أي تحليل ، لا بد منها لتكوين صورة عما كـان عليه هـذا الرجـل ،

وعن الدوافع التي كانت تحركه .

إن القوة الانفعالية البارزة ، وربما الأكثر حيوية ، التي يمكن أن نلاحظها لدى فرويد هي « رغبته في معرفة الحقيقة وإيمانه الثابت في العقل » . كان العقل ، بالنسبة اليه الطاقة الانسانية الوحيدة التي تستطيع المساهمة في حل مشكلة الوجود ، أو على الأقل ، في تخفيف الألم الملازم للحياة البشرية .

إن العقل بالنسبة لفرويد ، هو الوسيلة الوحيدة ـ أو السلاح الوحيد ـ الذي يوفر لنا معنى للحياة ، ويعفينا من الأوهام (التي تشكل الأديان ، مظهراً من مظاهرها) ، ويحررنا من السلطات التي تقيدنا ، ليؤسس ، فيما بعد ، سلطتنا الذاتية . إن الإيمان بالعقل كان ملازماً لفرويد في بحثه الدائم عن الصواب الذي نذر نفسه لأجله حين لاحظ وجود حقيقة نظرية في ثنايا تعقيدات وتركيبات الظواهر الملموسة . وحتى لو كانت النتائج التي يتوصل اليها ، محالة في الاعتبارات المألوفة ، فإنه لم يكن ليقلق أو يضطرب على الاطلاق . بل على العكس ، فإن سخرية الرأي العام ، الذي كانت تحركه الرغبة في العيش بسلام وهدوء ، كانت تعزز في نظره الفرق بين القناعة وبين الرأي ، بين العقل وبين الرأي العام ، وبين الحقيقة وبين التبرير .

هذا الإيمان الفرويدي بسلطة العقل ، هو إرث عصر الأنوار الذي كان شعاره « تجرأ على المعرفة » . هذا الشعار يميز شخصية فرويد وأعماله كلها . لقد ترافق هذا الاعلان ، في بداية الأمر ، مع تحرير الطبقة المتوسطة الأوروبية ، عندما حطمت قيود المجتمع الاقطاعي . إن سبينوزا وكانت ، وروسو ، وفولتير ، رغم الاختلاف في فلسفاتهم ، كانوا

يشتركون في هذا الايمان بالعقل ، كانوا جميعاً يشعرون بواجب الصراع من أجل ولادة عالم جديد ، منير حقاً ، حر وإنساني . لقد استمر انتشار هذا الفكر في أوساط الطبقة المتوسطة في القرن التاسع عشر ، في أوروبا الغربية والمركزية ، وخاصة بين الطلاب الذين اتجهوا نحو تطوير العلوم الطبيعية . إن الوسط اليهودي الذي أتى منه فرويد(1) ، والذي لعب دوراً في تطوره ، ساهم بكل تأكيد في دفعه الى الانتساب الى فكر الأنوار . إن التراث اليهودي نفسه كان مزيجاً من العقل والنظام العقلي ، بمعنى آخر ، ان هذه الأقلية التي تعيش حالة معينة من الاحتقار ، كانت تشعر ، بأن مصلحتها الأساسية في مواجهة قوى الضلال ، واللاعقلانية ، والخرافات التي تمنع عنها سبيل التحرر والتقدم .

بالاضافة الى هذا الاتجاه العام لدى الانتليجنسيا الأوروبية في نهاية القرن التاسع عشر ، كان في حياة فرويد الشخصية من الظروف الخاصة ، ما عزز ميله للجوء الى العقل وليس الى الرأي العام . خلافاً لكل القوى الكبرى الغربية في ذلك الوقت ، كانت الملكية النمساوية ـ الهنغارية في العصر الذي عاش فيه فرويد ، في حالة انحطاط تام . لم

---

(1) ذكرت الملاحظة نفسها Helen Walker Puner في كتابها الممتاز (Freud, His Life and His Mind) منشورات Grosset and Dunlap نيويورك 1943 ، وأعيد نشره في Bell-Books عام 1959) . والكتاب يعرض بشكل دقيق سيرة حياة فرويد ، ويركز على بعض النقاط الهامة ، خاصة فيما يتعلق بموقفه تجاه أصول اليهودية وبالطابع السياسي لحركة التحليل النفسي . ونتائجي التي توصلت اليها شديدة التطابق مع نتائج مدام Puner ـ كما نجد تحليلاً عميقاً للعلاقات بين فرويد وبين محيطه اليهودي في دراسة Ernest Simon «Sigmund Freud, the Jew» التي صدرت في Yearbook II ونشرها مركز النشر في معهد Leo Baek في لندن عام 1957 . واغتنم هذه الفرصة لأشكر البروفسور Simon لتفضله بقراءة مخطوطة هذا الكتاب وإسدائه اليّ جملة من الاقتراحات النقدية البناءة .

يكن لتلك الدولة أي مستقبل ، وكان الجمود هو الطابع المسيطر على كافة أنحاء الامبراطورية ، وذلك رغم الصراعات الضارية التي شنتها الأقليات القومية للحصول على استقلالها . هذه الحالة من الانحطاط السياسي والتفكك كانت منبهاً لايقاظ شكوك طفل ذكي ، ومحركاً لفكره الباحث . كان التباعد بين الايديولوجية الرسمية وبين « الوقائع » السياسية ، يعكس مزيداً من عدم الثقة في كلمات وتصريحات وشعارات السلطات الرسمية ؛ هذا التباعد كان ملائماً جداً لتطور الفكر النقدي . وفي حالة فرويد الخاصة ، ساهم عنصر من القلق في هذا التطور نفسه. فوالده الذي يملك مؤسسة صغيرة مزدهرة في « فرايبورغ » ، أرغم على التخلي عن عمله ، إثر التغييرات التي حصلت في مجمل الاقتصاد النمساوي ، وأدت الى إفقار مدينة « فرايبورغ » . هكذا ، تعلم فرويد ، منذ حداثة سنه ، عبر تجربة مؤلمة ، أنه لا يمكن الركون الى الثبات الاجتماعي أو الى الثبات السياسي ، أو حتى الى التقاليد ، لأن كل ذلك لا يوفر الإطمئنان ، ولا يستحق أي ثقة . أفلا يجب أن تؤدي تجربة من هذا النوع ، بفتى موهوب جداً ، الى أن يحصر إيمانه بذاته وبالعقل ، كوسيلة وحيدة يمكنه الركون اليها ؟

ولكن هناك الكثير من الشبان الذين ترعرعوا في ظل الظروف نفسها ، ولكن أحداً منهم لم يصبح فرويد ، ولم يبرز عنده ذلك العشق الخارق للحقيقة . يجب أن يتوافر اذن ، فيشخصيةفرويد ، عناصر خاصة به ، مسؤولة عن هذا التميز المفرط . فما هي هذه العناصر ؟

علينا ، دون أدنى شك ، أن نذكر في بداية الأمر مواهب عقلية ، وحيوية تتجاوز الحد المتوسط ، وتشكل جزءاً من تكوين فرويد الجسدي والأخلاقي . هذه القدرات العقلية المميزة التي امتزجت مع فلسفة الأنوار ، ومع انحطاط الثقة في الكلمات والأيديولوجيات ، كانت كافية

لوحدها لتفسير ارتماء فرويد التام أيضاً بين أحضان العقل . لكن قد يكون هناك عناصر أخرى أيضاً لعبت دورها في هذا المجال ،منها على سبيل المثال ، رغبة فرويد في أن يصبح رجلاً مشهوراً : هذه الرغبة يمكن أن تدفعه الى الاعتماد على العقل لأنه لم يكن يملك أي سلطة أخرى ، مالية أو اجتماعية أو حتى جسدية . وإذا أردنا البحث عن عناصر أخرى في طباع فرويد ، تفسر عشقه للحقيقة ، علينا أن نشير الى عنصر سلبي فيها ، هو النقص في مشاعره العاطفية ، في صلاته الانسانية ، في الحب ، وخاصة في تمتعه بالحياة . هذا التأكيد قد يبدو مثيراً للدهشة ، لأنه يتعلق بمخترع « مبدأ اللذة » ، وبالرائد المزعوم للذة الجنسية . ولكن الوقائع ، في هذا الاطار ، تفصح التعبير بطريقة لا تسمح بأدنى شك أو تساؤ ل . وسترد البراهين التي تدعم تأكيداتي هذه ، في تضاعيف هذا الكتاب . إذن يمكن القول اختصاراً ، إن مواهب فرويد ، والمناخ الثقافي ، والعناصر الأوروبية الخاصة ، النمساوية ، واليهودية في محيطه ، وتعطشه للشهرة والتألق ، وحرمانه من التمتع بالحياة ، كل ذلك أرغم فرويد على اختيار طريق المعرفة لتحقيق آماله .

هناك عناصر ذاتية أخرى ، تفسر أيضاً هذا الجانب من شخصية فرويد . فقد كان إنساناً قليل الطمأنينة ، يشعر بأنه مهدد دائماً ومضطهد ، وبالتالي كما هو متوقع ، يعبّر عن رغبة كبيرة في الأمان . ومن خلال رؤ يتنا لمجمل شخصيته ، نلاحظ أنه لم يعرف أي اطمئنان في الحب ، بل وجد ذلك في المعرفة فقط ، كما أنه أراد أن يتخلص من الاحساس بالشك والفشل عبر اقتحام العالم فكرياً .

يحاول أرنست جونز[1] Ernest Jones أن يعطي تفسيراً لرغبة فرويد

(1) Ernest Jones, The Life and Work of Sigmund Freud . Basic Books Inc. New =

للمعرفة ، يطابق النظرية التحليلية الارثوذكسية ، فيقـول : « انها الدافـع الأكـثر عمقاً والأكـثر قوة في طبيعتـه ، وهي التي دفعتـه ليكـون رائـداً في عمله » . ويلاحظ جونز وفقاً لهذه النظرية ، أن الرغبة في المعرفة « تتغذى من أسبـاب قويـة تنبع من الحشـريـة الـطفليـة المتعلقـة بـأحـداث الحيـاة الأولى »(1) . (دلالة الولادة وانعكـاساتهـا) . أما بـالنسبة لي ، فـأظن أن هذه الفرضية تتضمن تشويشاً مزعجاً ، ما بـين الحشريـة وما بـين الايمان بالعقل . لأننا نلاحظ لدى من يتمتعون بحشرية ذاتيـة مميزة آثـار حشريـة جنسية مبكرة وقوية بشكل خاص ؛ ولكن لا يبدو أن هناك صلة هامة بين هذا العامل وبين التعطش القوي للحقيقة . هناك عنصر آخر ذكـره جونـز وهو غير مقنع على الاطلاق . فشقيق فرويد ، فيليب ، كان يـطيب له أن يروي النكات . ووفقـاً لجونـز ، كان فـرويد يـظنه عشيق والـدته ، وقـد تـوسل اليـه وهـو يبكـي ألا يجعلهـا حبلـى من جـديد . ولكن « جـونز » يقول : « أيمكن أن نثق في شخص من هذا النوع ، يعلم الأسرار كـافة ، ليقول الحقيقة ؟ لا شك أن القدر اختار سبلاً غريبة عبر هذا الشخص غير المهم ـ الذي قيل أنه أنهى حياته كبائع جوال ـ ليحرك وجوده تلك الشرارة التي كانت في أساس القـرار الذي اتخـذه فرويـد في ألا يثق إلا في نفسه ، وفي عدم تصديق الآخـرين أكثر من نفسـه ، ومن هنا جعـل اسم فرويـد خالداً »(2) . في الواقع « لقد اختار القدر سبلاً غريبة » لو كان جـونز عـلى حق . ولكن ألسنا هنا أمام اختزال تعسفي حقيقي لـلأمور ، في «تفسير»

= York. 1955

وقد صدر الكتاب بالفرنسية في أجزاء ثلاثة تحت عنوان :

La vie et l'œuvre de Sigmund Freud. P.U.F.

(1) المرجع السابق . المجلد الثاني . الطبعة الفرنسية . ص 456 .

(2) المرجع السابق . ص 458 .

عبقرية فرويد بوجود أخ يحذره قليلاً ، يطلق نكاتاً سيئة حول مواضيع جنسية ؟

عندما نتحدث عن اندفاع فرويد نحو الحقيقة ونحو العقل ، علينا مباشرة أن نبين عنصراً هاماً ، سوف نبرزه بشكل أوسع في هذه الدراسة ، عندما يظهر طبع فرويد بشمولية أكثر : فالعقل بالنسبة اليه كان أسيراً « للفكرة » . لأن المشاعر والانفعالات في حد ذاتها غير عقلانية ، وهي لهذا السبب أدنى من الفكرة . وقد كان لفلاسفة عصر الأنوار ، بشكل عام ، الموقف الاحتقاري نفسه تجاه الاحساس ، والعاطفة . فالفكرة بالنسبة اليهم ، كانت محرك التقدم الوحيد ، والعقل لا يمكن أن نجده إلا في الفكرة . وهم لم يقروا ـ كما فعل سبينوزا ـ بأن الظواهر العاطفية ، كالفكرة ، قد تكون عقلانية وقد لا تكون كذلك على حد سواء ، وان تطور الانسان التام يفرض في الوقت نفسه تطوراً عقلانياً للفكرة وللعاطفة معاً . كما أنهم لم يدركوا بأن انقطاع فكرة الانسان عن أحاسيسه ، يؤدي الى التواءٍ في كل من الفكرة والأحاسيس ، كما يعني أيضاً أن صورة الانسان التي تُستمد من هذه الفرصة ستكون هي الأخرى ملتوية أيضاً .

لقد ظن هؤلاء المفكرين العقلانيين ، أن الانسان إذا أدرك عقلياً أسباب بؤسه ، فإن هذه المعرفة العقلية تمده بالقدرة على تغيير الظروف التي تسبب له الآلام . لقد تأثر فرويد تأثراً عميقاً بهذا الموقف ، وقد مضت سنوات طويلة قبل أن يتراجع عن الأمل في شفاء الأعراض العصابية من خلال المعرفة العقلية البسيطة لأسبابها .

عندما نتحدث عن اندفاع فرويد نحو الحقيقة ، فإن الصورة تبقى ناقصة إذا لم نبرز في الوقت نفسه ، ميزة خارقة من ميزاته الأخرى، هي « شجاعته » . نظرياً ، هناك العديد ممن يحملون عشقاً للعقل وللحقيقة .

ولكن ما يجعل تطبيق ذلك ، صعباً هو الحاجة الى الشجاعة التي قلما تتوفر في أي شخص كان . لأن المطلوب شجاعة من نوع خاص ومميز . وليس المقصود بالشجاعة القدرة على التضحية ، بالذات ، وبحريتها أو بمسراتها (رغم أن ذلك هو الآخر نادر جداً) . بل القدرة على الثقة بالعقل التي قد تعزل الانسان ، وتهدده بالوحدة ، وهذا ما يجده الكثيرون أشد قساوة من الموت نفسه . مع العلم أن البحث عن الحقيقة ، يعرّض الباحث ، بالضرورة الى هذا الخطر ، خطر العزلة التامة . إن الحقيقة والعقل مضادان للرأي العام . والأغلبية تتعلق بالتحليلات المريحة التي تُلحظ من خلال ظواهر الأمور . إن وظيفة العقل هي تحديداً ، الذهاب أبعد من الظاهر ، للوصول الى الجوهر الذي يختفي خلفه ، ليبيّن ، موضوعياً ، دون أي تأثر بالرغبات أو المخاوف ، ما هي القوى التي تحرك المادة والكائنات البشرية . إن محاولة من هذا القبيل تفرض على من يقوم بها ، شجاعة العزلة عن أولئك الذين تزعجهم الحقيقة ، وشجاعة مواجهة احتقارهم وسخريتهم . فرويد ، على هذا المستوى ، كان ذو طاقة مميزة . فقد شعر بالعزلة ، وتألم ، لكنه لم يكن مستعداً لأي مساومة بشأن هذه العزلة . هذه الشجاعة ، كانت مفخرة كبيرة له . . فلم يكن يعتبر نفسه عبقرياً على الاطلاق ، لكنه كان يرى إلى شجاعته كأكثر السمات تميزاً في شخصيته . ومن المحتمل أن يكون غروره هذا ، قد أثر سلبياً على صياغة نظرياته ، لأنه كان حذراً تجاه أي نظرية تبدو مساومة ، وعلى غرار كارل ماركس ، كان يشعر بنوع من الرضا وهو يطلق تأكيدات « تُذهل البورجوازي » . طبعاً ، ليس يسيراً أن نكشف الاسباب الحقيقة للشجاعة . فإلى أي مدى يتعلق الأمر بموهبة يمتلكها فرويد منذ الولادة ؟ والى أي مدى كانت شجاعته نتيجة إحساسه بمهمته التاريخية ؟ وإلى أي مدى كانت قوة داخلية ذات صلة بوضعه كطفل مدلل ، دون منافس ،

الى جـانب أمه ؟ يبـدو أن هذه الاحتمـالات الثلاثـة هي التي سـاهمت في تطور شجاعة سيجموند فرويد غير المألوفة . لكن حكمنا على هذا الأمر ، وعلى الجوانب الأخرى من شخصية فرويد ، يفـرض علينا أن ننتـظر قليلاً حتى ترتسم صورة طباعه بشكل أعمق ، ليكون الحكم أكثر صوابية .

II ـ علاقاته مع أمه : ثقة في النفس وعدم إطمئنان

لكي نفهم العناصر التي تحدد تطور طباع أي إنسان (باستثناء العناصر التكوينية) ، علينا أن نبدأ بدراسة الطريقة التي ارتبط بها هذا الشخص بوالدته . لكننا ، في حالة فرويد ، لا نملك نسبياً الكثير من المعلومات عن هذه العلاقة . وفي مطلق الأحوال ، يبدو أن هذا الأمر ، هو دلالة في حد ذاته ، لأن فرويد نفسه في محاولاته لكتابة سيرته الذاتية كان غير سخي في المعلومات المتعلقة بوالدته . إذ أنه من بين الثلاثين حلماً تقريباً التي ذكرها في « تفسير الأحلام » لم يكن لها حضور سوى في اثنين فقط . (لا بد وأن يكون فرويد ، لغزارة أحلامه قد رأى المزيد منها ، لكنه لم يذكر ذلك) . ويعبر هذان الحلمان بشكل واضح عن ارتباط شديد بها إذ يروي في أولها القصة التالية :

« إتجهت نحو المطبخ لاحضر لنفسي نوعاً من الحلوى . فوجدت هناك ثلاث نساء . إحداهن المضيفة . كانت تدير شيئاً ما بين يديها . أجابتني : ما عليك سوى الانتظار حتى أنتهي من عملي . (ليس واضحاً أنها تتكلم) . لم أصبر ، وخرجت غاضباً . لبست معطفاً ، لكنه كان طويلاً جداً ، فنزعته ، ودهشت قليلاً لأنه مزين بالفرو . ثم جربت معطفاً آخر ، له ذيل طويل تزينه رسوم تركية . ثم تدخّل غريب طويل الوجه ، ذو لحية دقيقة ومنعني من ارتدائه بحجة أنه له . فبينت له التطريز

التركي الذي يغطيه . فسألني : « ما الذي يعنيك في الرسوم التركية » ؟ لكننا أصبحنا أصدقاء فيها بعد »(1) .

نلاحظ في هذا الحلم ، الرغبة في الحصول على الغذاء من الأم . (إن مجرد تمثيل « المضيفة » ، أو حتى النساء الثلاث للأم ، يعبر بوضوح عن التداعيات التي يقوم بها فرويد في هذا الحلم) . إن العنصر النوعي في الحلم هو قلة صبر الحالم ، فعندما يقال له أن عليه الانتظار حتى تنتهي المرأة من العمل ، يخرج « غاضباً » . وماذا يفعل ؟ يضع معطفاً كبيراً مزيناً بالفرو ، ثم يضع معطفاً آخر ليس له . يمكن أن نرى في هذا الحلم ردة فعل نموذجية لطفل مميز عند أمه : هو يصر على تناول الغذاء من الأم (« غذاء » يجب أن تفهم رمزياً بمعنى « اعتناء » ، محبة ، حماية ، اعجاب » الخ) . وهو لا يصبر ، ويغضب إذا لم « يتغذى » مباشرة ، لأنه يشعر بأن من حقه أن يكون موضع اهتمام مباشر وتام . وخلال غضبه يخرج ويغتصب دور الرجل الكبير ، الأب (ورمزه المعطف الكبير الذي يخص غريباً) .

أما الحلم الآخر الذي يتعلق بأم فرويد فقد حصل أثناء طفولته ، عندما كان في السابعة أو الثامنة من عمره ، لكنه لا يزال يذكره بعد مضي أكثر من ثلاثين سنة ويحاول أن يفسره : « أمي العزيزة ، تغفو ممددة على السرير وعلى وجهها إمارات مميزة من الهدوء ، يحيط بها شخصان (أو ثلاثة) لهم منقار عصفور »(2) . يذكر فرويد أنه استيقظ في ذلك الوقت وهو يصرخ ويبكي ، مما يدل على قلق واضح اذا اعتبرنا أنه كان يحلم بوفاة أمه . إن مجرد تذكّره لهذا الحلم بتلك القوة ، بعد مضي ثلاثين

---

(1) تفسير الأحلام . منشورات .P.U.F . باريس 1967 . ص 181 .

(2) المرجع السابق ص 495 .

سنة ، يبين لنا أهميته . وإذا راجعنا الحلمين معاً ، وجدنا طفلاً ينتظر من أمه أن تحقق له جميع رغباته ، شديد الخوف لمجرد التفكير ، بأنها قد تموت . وفي مطلق الأحوال ، إن رواية فرويد لهذين الحلمين فقط فيما يتعلق بأمه ، له دلالة في حد ذاته ، إذا نظرنا الى الأمر من زاوية التحليل النفسي ؛ فهو يحاول أن يبرهن ما يشير اليه أرنست جونز بقوله : « خلال السنوات الأولى من حياة فرويد ، كان هناك أسباباً قوية لاخفاء مرحلة هامة من تطوره ، حتى عن ناظريه أيضاً . وأجازف بالقول أن هذه الأسباب تكمن في حبه العميق لأمه »[1] . إن الوقائع الأخرى أيضاً التي نعلمها عن حياة فرويد ، تسير في الاتجاه نفسه . فقد كان شديد الغيرة من أخيه Julius ، الذي ولد عندما كان له من العمر 11 شهراً ، وهو لم يحب شقيقته Anna ، التي تصغره بسنتين ونصف السنة على الاطلاق . ألا يشكل ذلك دليلاً كافياً لاطلاق تلك الفرضية ؟ . لكن هناك أيضاً من الوقائع الأشد خصوصية وبروزاً ، أكثرها أهمية ، وضعه كطفل مدلّل ، الذي يبرز بفظاظة أثناء حادث حصل عندما كان لشقيقته ثماني سنوات من العمر . فقد « أرادت والدتهم ، العازفة الماهرة ، أن تعلم الفتاة الصغيرة العزف على البيانو . لكن الضجة التي كانت تحدثها هذه الآلة ، نظراً لوجودها في غرفة غير بعيدة عن المكتب ، دفعت بالطالب الشاب للاصرار على عدم وجود البيانو ؛ وهذا ما حصل . ولهذا السبب لم يتلق أي فرد من العائلة تربية موسيقية ، وكذلك أطفال فرويد فيما بعد »[2] . ليس من العسير إذن أن ندرك مكانة طفل العاشرة هذا في علاقته مع أمه ، التي استطاع من خلالها أن يمنع العائلة بأكملها من أي تعليم

(1) جونز ـ المرجع السابق . المجلد الثاني . ص 433 .
(2) المرجع السابق . المجلد الأول ص 20 .

موسيقي لأنه لا يحب « ضجة » الموسيقى .

إن ارتباط فرويد العميق بأمه يتضح أيضاً في سنواته اللاحقة . فهو لم يكرس وقتاً لأي انسان ، حتى لزوجته . باستثناء زملائه ورفاقه في لعبة ورق « التاروت » . فقط ، كان يزور والدته صباح كل أحد ، ويستقبلها في المساء نفسه على العشاء ، وقد استمر ذلك إلى أن بلغت من الكبر عتياً .

هذا الارتباط ، وذلك الدور الذي لعبه كطفل مفضل ومدلل ، كان له انعكاسات هامة على تطور طباعه ، استطاع هو نفسه أن يلاحظها ، وقد تحدث عنهاعلى ما يبدو بطريقة السيرة الذاتية قائلاً :

« عندما نكون طفل الأم المفضل دون منافس ، فإننا نحتفظ بهذا الاحساس في الحياة ، ونشعر بالثقة في النجاح . . . »(1) . إن الحب الأمومي ، من حيث المبدأ ، غير مشروط . فالأم لا تحب طفلها ، كما يفعل الأب ، لأنه أهلاً لذلك ، أو بسبب ما فعله ، ولكنها تحبه لأنه طفلها . كذلك إعجاب الأم بطفلها غير مشروط هو الآخر . فهي لا تبدي ذلك الاعجاب لأنه فعل هذا الأمر أو ذاك ، بل لأنه ابنها فقط . هذا الموقف يتصاعد أكثر حين يكون الطفل مفضلاً عند أمه ، وحين تكون هذه الأخيرة في الوقت نفسه أكثر خيالاً وحيوية من الأب ، ومن خلال ذلك تسيطر على العائلة ، كما حصل ، فيما يبدو ، في عائلة فرويد . إن إعجاباً أمومياً مبكراً بالطفل يعطيه هذا الاحساس بالنصر والنجاح الذي يتحدث عنه فرويد . كما أن هذا الاحساس لن يكون موضع تساؤ ل . إن الثقة بالنفس التي تنتج عنه ، توفر الاحترام والتقدير وتمنح صاحبها إحساساً بأنه متفوق وليس مساوٍ للأشخاص العاديين . لا

(1) جونز ـ المرجع السابق . المجلد الأول ـ ص 6 .

شك أننا قد نصادف هذا النموذج من الثقة المفرطة في الذات ، المشروطة بالحب الأمومي ، لدى أشخاص ذوي مواهب فذة ، أو لـدى من هم أقل موهبة . وفي هذه الحالة نلاحظ مفـارقة مضحكـة ـ مبكية بـين الادعاءات وبين المواهب: ولكن في الحالة المعاكسة ، تشكـل الثقة في النفس مـرتكزاً قوياً لتطوير مواهب الانسان وقدراته . إن تميـز فرويـد بهذه الثقـة القائمـة على ارتباطه بأمه ، هو أيضاً ما يعبر عنه أرنست جونز بقوله : « هذه الثقة في النفس التي تميز بها فرويد بشكـل خاص ، لم تتـزعزع إلا نـادراً ، وقد كان محقاً ، دون أدنى شك ، في ردّها الى الثقة بأم مُحبة »[1] .

إن ارتباط فرويد القوي بأمه ، الذي أخفى قسمه الأكبـر ليس عن الآخرين فقط ، بل عن نفسه أيضاً ، لـه من الأهمية الكبيـرة التي لا تلقي ضوءاً على طباعه فقط ، بل تسمح بفهم أحد أهم اكتشافـاته الأسـاسية ، أي عقدة أوديب . يشرح فرويد الارتباط بالأم ـ بعقلانية تامة ـ من خلال انجذاب الطفل الصغير جنسياً نحو المرأة الأكثر حميمية بالنسبة اليه . ولكن إذا أخذنا بعين الاعتبار قوة ارتباطه هو نفسه بأمه ، وميله لكبت هذا الأمر، فـإننـا نستطيـع أن نفهم تفسيـره لأحدى أقـوى الميول لـدى الإنسـان ، الرغبة في العناية ، والحمـاية من خـلال حب الأم وإعجابهـا ، على غـرار رغبة الطفل الصغير المحدودة في إشباع حـاجاتـه الغرائـزية من خـلال أمه أيضـاً . لقد اكتشف فـرويد إحـدى تطلعـات الانسان الاسـاسية : أمنيـة البقاء الى جانب الأم ، Matrice إلى جانب الطبيعة ، الى الوجـود ما قبـل الفردي وما قبـل الواعي : لكنـه نفى ، في الوقت نفسـه اكتشافـه الخاص عندما حصر الأمر في قطاع الرغبات الغرائزية . إن ارتبـاطه الخـاص بأمـه يكمن في أصل اكتشافه ، لكن مقاومته لهذا الارتباط هي التي حددت هذا

(1) المرجع السابق ـ المجلد الأول . ص 6 .

الاكتشاف . وحرّفته[1] .

لكن الارتباط بالأم ، حتى لو كان مُرضياً ويفرض ثقة لا تناقش في الحب الأمومي ، فإنه لا يفترض فقط ذلك الجانب الايجابي المتعلق بالثقة المطلقة في النفس : بل يحمل أيضاً وجهاً سلبياً ، لأنه يخلق إحساساً بالتبعية والانهيار في كل تجربة لا تتكرر فيها شروط الحب والاعجاب . ويبدو أن هذه التبعية وذلك القلق قد شكلا عناصر مركزية في طباع فرويد وعُصابه .

إن عدم اطمئنان فرويد وجد تعبيراً مميزاً جداً في خوفه من الموت جوعاً . وذلك انطلاقاً من أن إحساس هذا الفرد قائم على حاجته للغذاء ، والعناية ، والمحبة ، والاعجاب من جانب الأم ، فلا بد أن تكمن مخاوفه تحديداً في ألا يحصل على هذا الحب .

ففي رسالة وجهها الى فليس (21 ديسمبر ، ك1 ـ 1899) كتب فرويد يقول : « هذا الخواف ، كان خوافاً من الفقر ، أو من الجوع ، إن مصدره شراهتي الطفلية وقد أثاره النقص في مهر زوجتي (التي أفتخر بها) »[2] . ويشير الى الموضوع نفسه في رسالة أخرى الى فليس (7 مايو ـ أيار ـ 1900) حيث يقول: « على الاجمال ـ باستثناء نقطة ضعفي في الخوف من الفقر ـ فإنني لا أميل الى الشكوى . . . »[3] .

---

(1) من المهم الاشارة هنا ، إلى أن من سَلَفَ فرويد في اكتشاف قوة الارتباط بالأم ، J.J. Bachofen ، كان شديد الارتباط بأمه . (لم يتزوج إلا في سن الأربعين تقريباً ، بعدما توفيت والدته) . لكنه لم يحاول التقليل من قوة هذا الارتباط العاطفي : بل على العكس ، فقد أظهر دلالاته في نظريته عن الأمومة .

(2) رسالة الى فليس ، من « ولادة التحليل النفسي » . منشورات P.U.F باريس 1967 . ص 272 .

(3) المرجع السابق ص 283 .

إن الخوف من البؤس برز بشكل قوي عند فرويد في إحدى أكثر اللحظات دراماتيكية في مهنته ، عندما أراد اقناع زملائه النمساويين وغالبيتهم من اليهود ، بقبول رئاسة المحللين غير اليهود . وعندما رفض النمساويون هذا الاقتراح أعلن فرويد : « إن أعدائي سيسرّون حتماً لرؤيتي أموت جوعاً ، وسينزعون عني حتى ثيابي»[1] . وحتى لو اعتبرنا أن هذا التصريح يهدف الى التأثير على النمساويين المترددين ، فإنه لا يخلو من الواقعية أيضاً ، وهو في مطلق الأحوال مؤشر بارز على هذا الخوف من الجوع الذي أشار اليه في رسائله الى « فليس » . إن عدم إطمئنان فرويد ، اتخذ أيضاً أشكالاً أخرى من التعبير ، أبرزها مخاوفه من أي رحلة في القطار . فقد كان يتجه الى المحطة قبل ساعة من موعد الرحلة ليتأكد من أن القطار لن يفوته ، وإذا أردنا ، كالعادة ، تحليل هذا السلوك ، علينا أن نفهم دلالته الرمزية . فالسفر يرمز الى التخلي عن الاطمئنان الأمومي ، وعن إطمئنان المسكن ؛ كما يمثل السفر الاستقلال ، ويساوي عملية بتر للجذور . لهذا السبب يشعر ، من يعيش ارتباطاً قوياً بأمه ، بأن السفر مهمة خطيرة ، عليه أن يتخذ في سبيلها الاحتياطات الخاصة جداً . ولهذا السبب أيضاً ، كان فرويد يتجنب السفر بمفرده . فخلال تنقلاته الطويلة أثناء العطلة الصيفية ، كان يرافق دائماً من يستطيع الاعتماد عليه ، غالباً ما يكون أحد تلامذته ، وأحياناً شقيقة زوجته . ولأسباب تتصل الى حد ما بالصورة السيكولوجية نفسها ـ الخوف من الانقطاع عن جذوره ـ عاش فرويد في نفس المسكن في Berggasse منذ الأيام الأولى لزواجه حتى لحظة هجرته القسرية . وسنرى ، فيما بعد ، كيف أن تبعيته العميقة لأمه تجلت في علاقاته مع زوجته ، ومع الرجال

---

(1) جونز ـ المرجع السابق . المجلد الثاني . ص 73 .

أيضاً ـ المسنين ، المعاصرين ، والتلاميذ ـ الـذين نقل اليهم حـاجة الحب غير المشروطة نفسها ، وحاجة الاعجاب والحماية . . .

III ـ علاقاته مع النساء : الحب

ليس غريباً أن تبرز تبعية فرويد لأمه في علاقاته مع زوجته أيضاً . إن السمة الظاهرة في هذه العلاقة ، هي التناقض في موقفه قبل الزواج وبعده . فخلال سنوات الخطوبة ، كان فرويد عاشقاً متيماً ، ذا غيرة شديدة . وتكشف لنا رسالته الى مارتا في 2 حزيران ـ يونيو ـ 1884 عن هذه الحدة في غرامه ، إذ يقول فيها : « حذار ، يا أميرتي ! عندما أعود سأقبلك حتى تصبحين كتلة من الاحمرار ، وسأطعمك حتى تسمنين تماماً . وإذا كنت غير مطيعة ، فسترين من منا الأقوى ، فتاة صغيرة ناعمة لا تأكل ما فيه الكفاية أم رجل كبير وجموح يسري الكوكايين في جسده ؟ »[1] .

هذه الاشارة الى « من الأقوى » تحمل رغم طرافتها طابعاً شديد الجدية . فخلال فترة الخطوبة كان فرويد يعيش رغبة جامحة في السيطرة التامة على مارتا ، مما يتضمن تلقائياً ، غيرة حادة من أي شخص قد تبدي نحوه هذه الأخيرة اهتماماً أو عاطفة باستثنائه فقط . فعلى سبيل المثال ، بدأت مارتا تشعر بنوع من الايثار لماكس ماير أحد أقاربها . « فما كان من فرويد بعد مضي وقت معين إلا أن منعها من الاشارة اليه باسمه فقط

(1) جونز ـ المرجع السابق، المجلد الأول . ص 93 .

(ماكس) : وأرغمها أن تستبدل ذلك بكلمة « السيد ماير » .

أما بالنسبة الى شاب آخر كان محباً لمارتا فقد كتب فرويد : « عندما أتذكر رسالتك الى Fritz واليوم الذي أمضيناه معاً في Kah lenberg ، أفقد كل سيطرة لي على نفسي ، ولو كانت لدي القدرة لتدمير العالم بأسره ، بما فيه نحن ، ليخلق من جديد - حتى لو غبنا عنه أنا وأنت - لفعلت ذلك دون أي تردد »(1) .

إلا أن غيرة فرويد لم تقتصر على الشبان الآخرين ؛ بل كانت تنطبق أيضاً على مشاعر مرتا العاطفية نحو عائلتها . فقد فرض عليها « لا أن تبدو فقط قادرة على انتقاد أمها وأخيها موضوعياً ، بل وان تتخلى عن « اعتقاداتهم السخيفة » . وهذا ما فعلته ، لكنه طلب منها أيضاً ألا تعبر لهم عن أي عاطفة ، لأنهم كانوا أعداءه ، وعليها أن تشاطره هذا الكره الذي يحمله لهم »(2) . هكذا أيضاً تصرف فرويد مع إيلي شقيق مارتا . فقد أودعته مارتا مبلغاً من المال كانت قد ادخرته ، لشراء أثاث المنزل مع خطيبها ، ويبدو أن إيلي قد تصرف بهذا المبلغ ، وأبدى نوعاً من التردد في تسديده بأكمله مباشرة ؛ فاقترح على مارتا وفرويد أن يدفع هو نفسه ثمن الاثاث بالتقسيط . فما كان من فرويد إلا أن وجه إنذاراً الى مارتا ، يحثها فيه على توجيه رسالة غاضبة الى أخيها تنعته فيها « بالفاسق » . وحتى عندما أعاد إيلي المبلغ ، أرغم فرويد مارتا على « ألا تكتب له (لفرويد) إلا عندما تعده بقطع كل علاقة مع شقيقها »(3) .

هذا المبدأ الذي يعطي للرجل حقاً طبيعياً في الاشراف على وجود

---

(1) المرجع السابق . ص 127 .
(2) المرجع السابق . ص 136 .
(3) المرجع السابق . ص 151 -152 .

زوجته ، كان جزءاً من آراء فرويد التي ترتبط بالتفوق الذكوري . ومن الأمثلة النموذجية على هذا الموقف ، انتقاداته التي وجهها الى جون ستيوارت ميل . كان فرويد معجباً بميل ، يعتبره « رجل العصر ، الذي استطاع أن يتحرر ، على أفضل وجه ، من الأحكام الشائعة . لكنه من جهة أخرى . . . كان يفتقد ، حول الكثير من النقاط ، الى إدراك المحال »(1) . فما هو « المحال » في أفكار ستيوارت ميل ؟ كان ذلك وفقاً لفرويد ، رأيه « حول تحرر المرأة . . . وحول المسألة النسائية بشكل عام » . إن مجرد اعتقاد ميل بأن المرأة المتزوجة تستطيع أن تكسب مثل زوجها ، دفع فرويد لكتابة ما يلي :

« إنها نقطة ، من المستحيل أن نعتبر فيها موقف ميل موقفاً انسانياً . . . إن دفع النساء للصراع من أجل الحياة ، مثل الرجال تماماً ، فكرة محالة . فإذا اعتبرت ، على سبيل المثال ، أن صديقتي الناعمة والفاتنة منافساً لي ، فإنني سأكتفي بأن أقول لها ، كما فعلت ذلك منذ سبعة عشر شهراً ، إنني متيم بها ، وانني أرجوها أن تنسحب من المنافسة لتهتم بمسكني . . اعتقد أن أي إصلاح للقانون وللتربية لن ينجح ، لأن الطبيعة ، قبل أن يبلغ الرجل مكانه في المجتمع ، حددت مصير المرأة بأن وهبتها الجمال والرقة والنعومة . لا شك أن العادة والقانون قد يمنحان النساء بعض ما يفتقدنه ؛ لكن وضع المرأة سيبقى على ما هو عليه : عشيقة غالية في صباها ، وزوجة محبوبة في نضجها »(2) .

إن موقف فرويد من تحرر المرأة لا يختلف أبداً عن موقف الرجل

---

(1) المرجع السابق. ص 194 .

(2) جونز ـ المرجع السابق. المجلد الأول ص 194 (رسالة الى مارتا في 5 نوفمبر ـ تشرين الثاني ـ 1883) .

المتوسط في أوروبا خلال القرن التاسع عشر . لكن فرويد لم يكن رجلاً متوسطاً ، بل ثائراً ضد العديد من الآراء الشائعة والمألوفة في عصره : لكن ذلك لم يمنع ، على هذا المستوى من أن يكرر أكثر المفاهيم اصطلاحاً حول المشكلة النسائية ، وان يتهم « ميل » بأنه « خيالي » و« غير انساني » لأنه عبّر عن آراء حققت بعد خمسين سنة تقريباً ، قبولاً عاماً الى حد ما . هذا الموقف يبيّن مدى حاجة فرويد لابقاء المرأة في وضع أدنى . ولا شك أن آراءه النظرية تعكس هذا الموقف نفسه . فالنساء أشباه رجال مخصيين، لا يملكن حياة جنسية طبيعية ، يحسدن الرجال بشكل دائم ، أناهن الأعلى قليل النمو ، كائنات عبثية لا نستطيع الاعتماد عليها . وكل ذلك ليس سوى صيغة عقلانية بعض الشيء للاحكام الرجولية في عصره . إن رجلاً مثل فرويد ، يمتلك قدرة تسمح له بتجاوز الاصطلاحات الشائعة ونقدها ، لا بد وأن تكون قواه الباطنية الشديدة هي التي حددت له هذا المسار ، بحيث لم يستطع اكتشاف الطابع « العقلاني » لهذه التأكيدات العلمية المزعومة .

إلا أنه ، وبعد مضي خمسين سنة ، كان يدافع عن الآراء نفسها . فخلال انتقاده للثقافة الاميركية ذات الطابع « الأمومي » ، سأله محدثه الدكتور Worthis ـ الذي يزوره بصفة طالب ـ : «ألا تعتقد أن من الأفضل أن يكون الزوجان متساويان ؟ » فأجاب فرويد : « تلك مسألة مستحيلة عملياً . يجب أن يكون هناك عدم مساواة وتفوق الرجال هو أقل الأمور سوءاً »(1) .

وفي حين كرس فرويد سنوات خطوبته ، للغزل والتودد الى خطيبته ، والغيرة عليها ، فإنه حين تزوج ، بدا عليه بشكل ملحوظ،

(1) المرجع السابق .. المجلد الثاني ص 444 -445

ذلـك الشح في الحب والعـواطف . تلك هي حالـة العديـد من الزيجات التقليدية . اثارة في الملاحقة ، وخمول حين تحقيق الهـدف ، أي انعدام أي رغبـة قويـة بإحسـاس عاطفي . إن الحب عنـد الذكـر يتحرك من خـلال الغزل والملاحقة ، لكن الزواج لا يسمـح للغرور بـأي إشباع . وفي هـذا النوع من الزواج ليس على المرأة سوى أداء وظيفة واحـدة : وظيفة الأم . عليها أن تبذل نفسها دون شروط في سبيل زوجها . إن تسهـر على راحتـه المادية ، أن تكون دائماً في خدمة حاجاته ورغباتـه ، أن تبدو دائـماً كمن لا يريد شيئاً لنفسه ، أن تنتظر ـ أي أن تكون أماً . كان فرويد عاشقاً ملهـماً قبل زواجه ، لأنه كان عليه أن يثبت رجولته من خلال امتـلاك الفتاة التي اختارها . وعندما حقق الزواج هذا الأمر ، تحولت « الحبيبة المعشوقة » إلى أم محبة ، نستطيع الاعتماد على رعايتها وحبها دون أن نبادلها أي غـرام أو عاطفة قوية .

إلى أي درجة كان حب فرويد لـزوجته سلبيـاً تمامـاً وخاليـاً من أي رغبة شهويـة ؟ هناك جملة من التفـاصيل تشهـد على ذلـك ، أبرزهـا دون شـك رسائله الى فليـس التي لم يشـر فيها إلى زوجتـه إلا في إطـار عـابـر تمـاماً . وإذا لاحـظنا أنها لا تحتـل إلا حيزاً ضَيِّقـاً في أفكـاره عن مـرضـاه ونجـاحه وفشله المهني ، كـان ذلك دليـلاً بحد ذاتـه ؛ لكن مـا هـو أكـثر اهمية ، أن فرويد يتحدث غالباً بإحباط عن الفـراغ في وجوده ، الـذي لا يسده إلا التقدم الناجح في عمله . إنه لا يشير أبداً الى علاقاته مع زوجته كمصدر للسعادة . كما نصل الى النتيجة نفسها عندما نلاحظ الطريقة التي يمضي بهـا فرويـد أوقاتـه في منزلـه أو خـلال العـطلة . فخـلال الاسبـوع يستقبل مرضاه من الثامنة صباحـاً الى الواحـدة ظهراً ، يتغـدى ، ثم يتنزه وحده ، ويعود للعمل في عيادته من الثالثة حتى التاسعة أو العاشـرة ليلاً ،

ويقوم بنزهة بعد ذلك ، برفقة زوجته أو شقيقتها أو ابنته ، ثم يتجه ثانية الى عيادته لمتابعة بعض المراسلات أو المؤلفات حتى الواحدة صباحاً ، إذا لم يمنعه من ذلك لقاء أو اجتماع . ويبدو أن وجبات الطعام أيضاً لم تكن بالنسبة اليه فرصة للعلاقة الاجتماعية ، والدليل على ذلك « عاداته في أن يضع أمامه على المائدة آخر تمثال حصل عليه من محل الاثريات ، بحيث يتأمله طيلة الوجبة . ثم يعيده الى المكتب ، ويستمر على هذا المنوال يوماً أو يومين»[1] ويذهب صباح كل أحد لزيارة أمه ، ويمضي بعد الظهر مع بعض الأصدقاء والزملاء المحللين ، يستقبل والدته وشقيقاته الى العشاء ، ثم ينصرف لمتابعة مخطوطاته[2] أما زوجته فقد اعتادت على استقبال الأصدقاء طيلة بعد الظهر : وما يورده جونز بهذا الصدد يعتبر دليلاً بليغاً على مدى اهتمام فرويد بوجود زوجته ، فهو يقول : إذا كان بين زوار مارتا « من يهتم به فرويد ، توقف هذا الأخير في الصالون بضع دقائق »[3] .

خلال الصيف ، كان فرويد يمضي وقتاً طويلاً في السفر . هذه الفترة من العطلة كانت بالنسبة اليه فرصة ملائمة للتخفيف من قساوة العمل واستمراريته طيلة أيام السنة . كان فرويد يحب السفر ، ويكره أن يسافر وحده . لكن العطلة لم تعوض إلا جزئياً عن الوقت القصير الذي يمضيه مع زوجته في المنزل . وكما رأينا ، كان فرويد يسافر ، مع أصدقائه المحللين ، أو حتى مع شقيقة زوجته ، ولكن ليس مع الزوجة نفسها . ويبدو أن لهذا الأمر تفسيرات عدة ، أحدها يقدمه فرويد نفسه والآخر

---

(1) المرجع السابق . المجلد الثاني . ص 417 .
(2) المرجع السابق ص 409 .
(3) المرجع السابق ص 409 .

يعرضه جونز . حيث يقول : « كانت زوجته منهمكة بأمور أخرى ، ونادراً ما تستطيع السفر ، ولم تكن مشابهة لفرويد في حيويته ورغبته في زيارة الأماكن . . . لكنه ، خلال تنقلاته ، شبه اليومية ، كان يرسل اليها بطاقة بريدية ، أو برقية ، وكذلك رسالة مطولة بين مدة وأخرى »(1) . هنا نلاحظ أيضاً إلى أي مدى تصبح طريقة جونز في التفكير ، اصطلاحية وغير تحليلية عندما يتعلق الأمر ببطله . فكل إنسان يجب أن يمضي ساعات فراغه مع زوجته ، لا بد وأن يضبط رغبته في السفر ، ليتسنى لها أن تشاركه فيها . إن الطابع « العقلاني » لتعليق جونز يصبح أكثر بداهة ، لأن فرويد نفسه يقدم تفسيراً مختلفاً لعدم سفره مع زوجته . فقد كتب الى مارتا من Palerme ، حيث يقيم مع فرنيزي : Ferenczi « إنني أشعر باليأس لأنكم لا تستطيعون جميعاً رؤ ية الأشياء الرائعة هنا . لكن الاستمتاع بهذه الروائع ، برفقة سبعة أو تسعة أشخاص ، أو حتى ثلاثة فقط ، يفرض ألا أكون محللاً ، أو حتى كما يقال ، مؤ سس اتجاه جديد في علم النفس ، بل مجرد صاحب مصنع للحاجيات المفيدة ، كالأوراق الصحية ، أو السجائر ، أو أزرار الأحذية . لقد فات الوقت لأتعلم ذلك ، لذا عليّ أن أستمتع برحلاتي بأنانية ، ولكن بإحساس عميق بالندم »(2) .

من نافل القول ، أن فرويد يستسلم هنا « لعقلانية » شديدة التميز في سلوكه ، مماثلة لتلك التي يلجأ اليها باقي الأزواج الذين يفضلون قضاء عطلتهم مع الأصدقاء وليس مع زوجاتهم . والأكثر بروزاً من كل ذلك ، تعتيم فرويد ، رغم تحليله الذاتي ، على موضوع زواجه ، و« العقلنة »

(1) المرجع السابق ص 16 .

(2) المرجع السابق . ص 418 (رسالة بتاريخ 15 سبتمبر ـ أيلول . عام 1910) .

التي يلجأ إليها دون أي إدراك لما يقوم بـه . فهو يتحـدث عن اصطحـاب تسعـة أشخاص ، أو سبعـة ، أو حتى ثلاثـة ؛ بينما ليس عليـه ، عملياً ، سوى اصطحاب زوجته ، مما يعني رحلة لشخصين فقط ، وهذا ما يـدفعه لأن يلعب دور العـالِم المسكين ، ولكن المهم ، الـذي لم يسعفـه الحظ لأن يكون منتجاً ثرياً لـلأوراق الصحية ، كـل ذلك تفسيـراً لعدم اصـطحابـه لزوجته أثناء سفره . . .

ويبـدو أن التعبير الأكـثر وضوحـاً ، عن طبيعة الاشكـاليـة في حب فرويد لزوجته ، نجده في « تفسير الأحلام »[1] ، في الحلم التالي :

« كتبت مـواصفات نبتـة ما . الكتـاب أمامي ، أقلـب تحـديداً ، صفحـة يرتسم عليهـا جدولاً من الألـوان . يتضمن كـل نمـوذج عينـة من النبتة المجففة ، وكأنه كتاب عن الأعشاب » . وسأذكر فيـما يأتي تـداعيات فرويد حول هذا الحلم : « شاهدت في ذلـك الصباح ، في واجهـة إحدى المكتبـات كتابـاً جديـداً عن نبات المـريَم (نـوع من النبـاتـات لـه رائحـة البخـور) ، وهـو يتضمن عـلى الأرجـح معلومـات عن تلك النبـتـة ومواصفاتها . هذا النوع من النبات هو الزهرة المفضلة لدى زوجتي . انني ألوم نفسي لأنني لا أفكر بتقديم الزهور لها إلا نادراً ، خلافاً لما ترغب » .

وفي مستـوى آخر من التـداعيات ، ينتقـل فـرويـد من الـزهـرة الى موضوع مغاير تماماً ، يتعلق بطموحه :

« حـادث آخر . لقـد فعلت في السـابق أشيـاء كثيـرة ، عـلى غـرار مواصفات نبتة ؛ كدراستي حـول الكوكـا ، التي لفتت انتباه Karl Koller للخصائص المخدرة الموجودة في الكوكايين » . يشير فرويد هنـا الى حادثـة

---

(1) تفسير الأحلام . بالفرنسية . منشورات .P.U.F . باريس 1967 . ص 153 .

لقائه المشرّف مع كولر في المساء السابق . هـذا الترابط مـع الكوكـايين لـه علاقة بطموح فرويد . فهو يعبر ، في مواضع أخرى ، عن أسفه الشـديد لأنه تخلى عن متابعة الدراسة حول الكوكايين وفقد بذلك الفرصـة لتحقيق اكتشـاف كبير . كـما يسوق هـذه الملاحـظة أيضاً لأنـه اضطر للتخـلي عن البحث العلمي البحت من أجل الزواج .

إن دلالة الحلم شديدة الوضوح (رغم أن فرويد لا يراها في تفسيره الخاص) . إن نموذج النبتة المجففة هو النقطة المركزية والمعبرة عن الصراع الذي يعيشه فرويد . فالزهرة رمز للحب والفرح ، خصوصـاً هنا ، حيث يتعلق الأمر بالزهرة المفضلة لدى زوجته ، التي لا يفكـر إلا نادراً بتقـديمها لها . لكن نبتة الكوكا تمثل حرصه العلمي وطموحه . فماذا يفعـل فرويـد مع الزهور ، والحب ؟ انه يضغطها ويضعها في كتاب للأعشاب ، أي أنه يـدع الحب ليجف ، ثم يجعل منـه موضـوعاً للبحث العلمي . هـذا هـو بـالضبط سلوك فرويـد . فقـد جعـل من الحب مـوضـوعـاً علمياً ، لكن الحب ، في حياته ، أضحى جافاً وعقيماً . إن اهتماماته الفكرية والعلمية كانت أقوى من قدرته على الحب والرغبـة ، لقد خنقت تلك الاهتمـامات « الايـروس » ، وأصبحت في الـوقت نفســه بـديــلاً « لتجـربــة » الحب المعاشة .

إن جفاف الحب ، كما يعبـر عنه هـذا الحلم ، يعود أيضـاً ، وبكل وضوح ، الى رغبات فرويد وقدراته الشهوية والجنسية . فقد كـان فرويـد على غرابة هذا الأمر ، رجلاً ذا اهتمام ضعيف نسبياً بالنساء ، وذا قدرات جنسية ضئيلة . ومن الصحيح تماماً ، ما قالـه جونـز « بأن زوجـة فـرويد كـانت بكل تأكيد المرأة الوحيدة في حياته العاطفية » . لكن جونز يـلاحظ أيضاً أنه من المحتمل « أن القسم الأكثر انفعالاً ورغبة في الوجود قـد هدأ

عنده مبكراً قبل الكثير من الرجال عادة »(1) . إن حقيقة هذا التأكيد تبرز من خلال شواهد عدة . ففي الواحدة والأربعين من العمر ، كتب فرويد الى فليس يشكو كآبة مزاجه ؛ ثم أضاف قائلاً : « ان شخصاً مثلي ، ليس أمامه سوى الاثارة الجنسية »(2) . لا شك أن الحياة الجنسية كانت قد انتهت تقريباً بالنسبة الى فرويد في هذه السن ، حادث آخر يؤكد هذا الأمر : يروي فرويد في « تفسير الأحلام » أنه عندما كان في الأربعينات من العمر ، شعر بميل جسدي نحو فتاة شابة ، ثم ، بشكل إرادي نوعاً ما ، اقترب منها ولامسها ملامسة خفيفة . وفي تعليقه على ذلك ، يضيف : انه دُهش لأنه لاحظ أن بإمكانه « أيضاً » أن يشعر بمثل هذا الميل . وفي سن السادسة والخمسين كتب الى L. Binswanger يقول : « الآن ، وبشكل طبيعي يُشبع الرجل المسن الليبيدو بتوزيعه للمال » . ولكن حتى في هذه السن لا يمكن لأي رجل أن يعتبر أن الليبيدو قد تخلى عن أي عناية جنسية إلا إذا كان يشعر أصلاً بأن حياته الجنسية غير قوية .

إذا كان المرء يستطيع اللجوء الى بعض التأملات ، فإنني أفترض أن بعض نظريات فرويد تشهد أيضاً على تلك الحالة الجنسية لديه . فهو يؤكد في مواضع عدة بأن العلاقات الجنسية لا يمكن أن تؤمن لرجل متمدن إلا إشباعاً محدوداً ؛ « وإن الحياة الجنسية لهذا الكائن المتحضر مصابة بجرح عميق ، وعلينا أن نعترف بأنها باتت مصدراً قليل الأهمية للسعادة . . . »(3) . وهو يبرر هذا الأمر م-ترضاً أن الاشباع التام لا يتحقق إلا إذا كانت الدوافع ما قبل التناسلية غير مكبوتة . وهو يذهب

---

(1) جونز ـ المرجع السابق ـ المجلد الثاني ـ ص 410 .

(2) المرجع السابق ص 410

(3) « قلق في الحضارة » . منشورات .P.U.F . 1971 ـ ص 57 .

حتى الى التفكير « بأن الضغط الحضاري ليس سبباً في حد ذاته ؛ بل ان طبيعة الوظيفة الجنسية نفسها ترفض أن تمنحنا إشباعاً تاماً وترغمنا على البحث عن سبل أخرى »(1) .

كما يعتقد فرويد بأنه « بعد مضي ثلاث ، أو أربع ، أو خمس سنوات تتبخر وعود الزواج باشباع الحاجات الجنسية ، لأن جميع وسائل منع الحمل لغاية الآن تفسد المتعة الجنسية ، وتربك الاحاسيس الرقيقة للشريكين ، أو أنها تؤثر مباشرة في الحالات المرضية » .

إذا تأملنا ملاحظات فرويد حول الحياة الجنسية ، أدركنا أنها ليست سوى التعبير « العقلاني » عن حالة الكبح الجنسي عنده . ولا شك أن هناك الكثير من الرجال في سنه ، وثقافته وطبقته الاجتماعية ، الذين لا يشعرون على الاطلاق، بين الأربعين والخمسين من العمر ، بأن فترة السعادة التي توفرها العلاقات الجنسية قد ولت ، كما أنهم لا يشاطرونه الرأي أبداً ، بأن السعادة الجنسية تختفي بعد بضع سنوات من الزواج ، رغم ضرورة اللجوء الى وسائل منع الحمل .

إذا تقدمنا خطوة ثانية ، نستطيع الافتراض أيضاً بأن نظرية أخرى لفرويد لها كذلك وظيفة « عقلانية » : وهي فرضيته التي تعتبر أن الحضارة والثقافة تنتجان عن الغاء الغرائز . أي أن ما يريد التعبير عنه في هذه النظرية هو التالي : بما أن الفكرة والحقيقة تشغلانني ، ليس لي حتماً سوى اهتمام ضئيل بالمسائل الجنسية . هنا ، جعل فرويد ، كما فعل ذلك غالباً ، من تجربة فردية ، حالة عامة . ومن الممكن أنه كان يعاني من الكبح الجنسي ، ولكن ليس لأنه كان شديد الاهتمام بالفكرة الخلاقة ،

---

(1) المرجع السابق . ص 57 .

بل لأسباب أخرى . هذا الكبح الجنسي عند فـرويد ، قـد يبدو متنـاقضاً مع نظرياته التي جعل فيها مكـاناً رئيسـاً للدافع الجنسي . إلا أنـه تناقض ظاهري وليس حقيقي . فالكثير من المفكرين يعالجـون أمراً لا يعيشـونه ، ويحاولون انجـازه في سبيل أنفسهم أو في سبيـل الآخرين . بـالاضافـة الى ذلك ، لم يكن فرويد ذو الموقف المتزمت ، ليستطيـع أن يتحدث بـوضوح عن الجنس لو لم يكن واثقاً من « استقامته » بهذا الشأن .

إن ضمـور فرويـد العاطفي تجـاه النساء يبـرز أيضاً في قلة معـرفتـه بالطبيعة النسائية. ونظرياته عن النسـاء ليست سوى « عقلنـات » ساذجـة لأحكام ذكورية ، وخاصة لأولئك الرجال الذين يلجأون للسيـطرة لاخفاء خوفهم من النساء . لكن قلة معرفة فرويد بـالنساء ليست نتيجـة نظريـاته فقط . فهو يلاحظها بصراحة تامة ، ويعلن ذات يوم خلال مناقشة : «إن أكبـر سؤال بقي دون إجابـة ، ولم أستطع حله رغم سنـواتي الثلاثـين في دراسة نفسية المرأة ، هو التالي : ماذا تريد المرأة ؟ »(1) .

إلا أننـا ، حين نتحـدث عن مـوقف فـرويـد من الحب ، يجب ألا نقصر ذلك على الحب الشهوي. فحتى عندما لا يتعلق الأمر بعنصر شهوي ، كانت عاطفة فرويد نحو الآخرين أيضاً قليلة بشكـل عام . فعـلاقاتـه مع زوجته ، بعدما خمدت جذوة الامتلاك الأولى ، كانت ظاهراً ، علاقات زوج وفي ، لكن بعيد ، وعلاقاته مع أصدقائه الذكور ، برويير ، فليس ، يونغ ، وتـلامذتـه المخلصين ، كـانت بعيدة أيضـاً . وبالـرغم من نعوتـه البراقة لكل من جونـز وساخس ، فـإننا سـرعان مـا نكتشف عبر رسـائله لفليس وردود فعله تجـاه يونـغ ، وفرنيـزي فيما بعـد ، انه لم يعش تجـربـة

(1) طرح هذا السؤال ، وفقا لجونز ، على ماري بونابرت . المرجع السـابق المجلد الثاني . ص 444 -445

عاطفية قوية . ولا تفعل آراءه النظرية سوى تـأكيد ذلـك . ففي إمكانيـة الحب الأخوي يقول : « من المتطلبات المثالية للمجتمع المتحضر ، مطلب قـد يهدينـا الى سواء السبيـل ، هذا المطلب يقول لنـا : « أحبب قريبـك كنفسـك » . هذه الجملة الشهيـرة في العالم أجمـع ، هذه الحكمة هي دون شك أقدم عهداً من المسيحية التي وضعت اليـد عليها لتفـاخر بهـا . لكنها حتماً ليست موغلة في القدم . فقد كانت لا تزال مجهولة من البشـر حتى في عهود تاريخية . ولكن لنتخذ منها موقفاً ساذجاً كما لو أننا نسمـع بها للمـرة الأولى ؛ إننا لا نستطيع حينئذٍ أن ندفع عن أنفسنا إحساسـاً بالمفـاجأة من غـرابتها . لمـاذا يعتبر ذلـك واجباً علينـا ؟ أي عون تمـدنـا بـه ؟ ثم كيف السبيل ، على الأخص ، الى العمل بها وتطبيقها ؟، وكيف سيكـون ذلك ممكنـاً ؟ ان حبي هو في نـظري شيء ثمين جـداً لا أملك الحق في تبديـده هباء . إنه يفرض علي واجبات يجب أن ألتزم بها حتى مقابل التضحيات . إذا أحببت كـائناً آخـر ، فيجب أن يكون مستحقـاً لذلـك . (أستثني هنا علاقتين لا تعتبران ضمن حب القريب : الأولى تقـوم على الخـدمات التي يستطيع أن يقدمها لي ، والثانية أهميتـه الممكنة كمـوضوع جنسي) . إنـه يستحق حبي عندما يشبهني الى درجـة أستطيـع أن أحب فيه نفسي . إنـه يستحق هذا الحب فقط عندمـا يكون أكـثر كمالاً مني ، وعنـدما يتيـح لي إمكانية أن أحب فيه مثلي الأعـلى ؛ عليّ أن أحبـه إن كان ابنـاً لصديقي ، لأن ألم الصديق ، إذا مس ابنه ضُر ما ، سيكـون ألماً لي أيضـاً ؛ وعلي أن أقاسمه ذلك ، ولكنه لـو كان مجهـولاً بالنسبـة لي ، ولا يجتذبني بـأي ميزة شخصية ، ولم يلعب أي دور في حياتي العـاطفية ، فـإنه من الصعب علي أن أشعر تجاهه بعاطفة حب . ولو فعلت ذلك ، لاقترفت ظلماً ، لأن أهلي يعتبـرون حبي لهم تفضيلاً ؛ وسـأكون مجحفـاً بحقهم لو خصصت غـريباً بالتفضيل نفسه . وإذا كان لا بد له ، والحالة هذه ، أن يقاسمني مشـاعر

الحب التي أحملها للعالم بأسره ، فذلك فقط لأنه يعيش على هذه الأرض ، مثـل حشرة ، أو دودة أرض ، أو ثعبـان . انني أخشى ألا ينبـع من قلبي نحوه إلا قدر ضئيل جداً من الحب ، كـما أخشى بكل تـأكيد ألا أستـطيع محبته إلا بقدر ما يسمح لي العقل بالاحتفـاظ به لنفسي . مـا الفائـدة إذن من هـذا الصخب الاستعراضي ، لـوصية لا يبيـح لنا العقـل ، ان نـأمـر أحداً باتباعها ؟ »(1) .

فرويد ، ناطق كبير بـاسم الجنس ، لكنه متـزمت نموذجي . يعتقـد أن غاية الحياة بالنسبة للكائن المتحضر تتلخص في قمع دوافعـه الانفعاليـة والجنسية التي تؤدي الى وجود متحضر. إن الجماعـة غير المتحضـرة تعجز عن تضحية مماثلة . بينما النخبة الفكـرية بخـلاف تلك الجماعـة تستطيـع عـدم إشبـاع دوافعهـا ، وأن تتسـامى بهـا نحـو أهـداف أكـثر علواً . إن الحضارة بمجملها هي نتيجة عدم اشباع الدوافع الغرائزية .

يجب أن يـلاحظ الى أي مـدى كـانت أفكـار فـرويـد في نـظريـاتـه المتـأخرة ، تعشعش في داخله مـذ كان شـاباً ، لا تشغله مشـاكل التـاريخ والتسامي . فهو يصف ، في رسالة وجههـا الى خطيبتـه ، تسلسلاً لأفكـارٍ خطرت في ذهنه خلال عرض Carmen :

« يتـرك الشعب العنـان لـدوافعـه ، بينـما نمتنـع نحن عن ذلــك ، للحفاظ على تكـاملنا . نقتصـد في صحتنا ، في لـذتنا ، وفي قـوانا : كـل ذلك من أجل شيء ما ، دون أن نعرف ما هو هـذا الشيء . هذه العـادة من القمع المتواصل لغرائزنا الطبيعية هي التي تعطينا الطابع المرهف . كما نشعر بالأشياء بعمق أكثر ، ولهذا لا نجرؤ على طلب المزيـد من أنفسنا . لماذا لا نسكر ؟ بسبب الضيق ، والخجل من الشعور بالألم في الشعر (aux

---

(1) قلق في الحضارة . منشورات .P.U.F باريس 1971 ، ص 61 -62 .

(cheveux الذي « يزعجنا » أكثر مما يجلبه لنا السكر من لذة . ولماذا لا نصادق الناس جميعاً ؟ لأن خسارة صديق ، أو أي حادث يصيبه سيؤلمنا بقسوة . وهكذا تتجه جهودنا أكثر لتجنب الألم الذي خلقه الفرح . عندما يتوج الجهد بالنجاح ، يصبح من يحرمون أنفسهم مثلنا ، نحن الذين يرتبط واحدنا بالآخر من أجل الحياة ومن أجل الموت ، ونحتمل الحرمان والحزن للحفاظ على إيماننا ، ولن نستمر حتماً لنواجه ضربة القدر تخطف منا أعز الأشخاص : إن الكائنات الانسانية ، على غرار Asra ، لا يمكنها أن تحب إلا مرة واحدة . إن حياتنا بأسرها تفترض مسبقاً أن أسوأ حالة من الفقر ستلاحقنا ، وأننا سنتمكن دائماً من التحرر شيئاً فشيئاً من مساوىء بنيتنا الاجتماعية . إن الفقراء ، وعامة الناس ، لا يستطيعون الحياة دون جلدهم السميك وطرائقهم الحرة . فلماذا ينبغي عليهم أن يشعروا بحدة غرائزهم ، بينما تتجه مصائب الطبيعة ، والمجتمع ضد كل الذين يرغبون بها ؟ لماذا يجب عليهم أن يحتقروا لذة مؤقتة في الوقت الذي لا تنتظرهم أي لذة أخرى ؟ إن الفقراء أكثر عجزاً ، من أن يستطيعوا التصرف مثلنا . عندما أرى بعض الناس يمضون وقتاً طيباً دون أي اهتمام جدي ، أفكر بأن هذا الأمر هو بمثابة تعويض لهم عن ضعفهم أمام الضرائب ، والأمراض ، ومساوىء مجتمعنا . لا أريد الغوص بعيداً في هذه الانطباعات ، ولكن يجب أن أبرهن أن الشعب ، يحكم ، يفكر ، يتمنى ، ويعمل بشكل مغاير لنا تماماً . هناك علم نفس خاص بالرجل العادي يختلف عن علمنا . ولهؤلاء العامة أيضاً ميزة الاحساس بالجماعة الذي نفتقد اليه : إنهم وحدهم الاحياء ، لأن الحياة بالنسبة لهم هي استمرار لما مضى ، بينما يختفي العالم بالنسبة لنا ، في لحظة موته »[1] .

---

(1) جونز . المرجع السابق . المجلد الأول . ص 209-210

هذه الرسالة من فـرويد الشـاب ذي السابعـة والعشرين من العمـر شديدة الأهمية على أكثر من صعيد . ففيها يستبق نظرياته الـلاحقة ويعبّـر عن توجهه الارستقراطي والمتزمت الذي أشرنـا اليه : الحـرمان ، اقتصـاد طـاقة الاستمتـاع ، ذلك هـو شرط التسـامي الذي يـرتكـز عليـه تشكـل النخبة . ولكن الى جانب ذلك يعرض فرويد رأياً آخر سـوف يصبح فيـما بعد أساساً لاطروحاته الأكثر أهمية والتي سيطورها في السنوات اللاحقة . فهو يصف خوفه من جرح عـاطفي ، نحن لا نحب أحداً لأن الانفصـال عمن نحب يكـون مضنياً جـداً ؛ نحن لا نـرتبط بصـداقـة مـع أحـد لأن خسارة الصديق تحزننا . إن الوجود يتجه نحو تجنب الحـزن والألم أكثر ممـا يتجه نحو الاحسـاس بالفـرح . وكما يقـول فرويـد نفسه بـوضوح : « إن جهـودنا تميـل أكثر لتجنب الألم الـذي خلقه الفـرح » . نجد هنـا الصيغة الأولى لما اعتبره فرويد فيما بعد « مبدأ اللذة » ؛ هذه الفكـرة التي تعتبر أن اللذة هي في الـواقع تنـاقص للألم وللتـوتر المتعب أكـثر مما هي إحسـاس بالفرح ، ظهرت عند فرويد خلال مرحلة النضج كمبدأ ذي قيمة عامـة ، وهو المبدأ الأساسي للميل الانسـاني . لكننا نستـطيع أن نـلاحظ أيضاً أن فرويد في هـذه الرسـالة كـان يعيش الفكرة نفسهـا حتى قبل أن يعبـر عنها بطريقة نظرية : كان يمتلكها كمحصلة لشخصيته « الفيكتورية » ، ولخوفه من فقـدان مـا يملك (في الحـالـة الخـاصـة فقــدان المـوضــوع المحبـوب والاحساس بالحب) وبمعنى ما فقدان الحياة . هذا الموقف تميزت به الطبقة الـوسطى في القـرن التاسـع عشـر أي الاهتمـام « بـالامتـلاك » أكـثر من الاهتمـام « بالكـائن » . إن سيكولـوجية فـرويد كـانت متأثـرة بعمق بهذا التوجه نحـو « الامتلاك » : ولهـذا كان الخـوف العميق بالنسبـة له فقـدان شيء مـا « نمتلكه » ، سـواء أكان مـوضوعـاً محبوبـاً أو إحساسـاً أو عضواً تناسلياً . (وبهذا المعنى لا يشاطر فرويد على الاطلاق المعارضة للملكية في

الطبقة الوسطى التي نجدها على سبيل المثال في فلسفة غوتيه) .

يجب الاشارة أيضاً الى مقطع آخر من هـذه الرسـالة حيث يتحـدث فرويد عن الناس العاديين الذين يتمتعون أكثر بالاحساس بالجماعة الذي « لا نمتلكـه نحن » . « إنهم وحـدهم الاحيـاء ، بمعنى أن الحيـاة هي استمرار للحياة السابقة بينما يختفي العالم بـالنسبة لأي واحـد منا في لحـظة موته » . هذه الملاحـظة التي يقدمهـا فرويـد عن البرجـوازية التي ينقصهـا الاحساس بالتضامن مع الطبقة العامة صحيحـة تمامـاً . ولكن يجب أن لا ننسى أيضاً وجود العديد من أفـراد الطبقـة المتوسـطة والعليا الـذين كانـوا يشعـرون بـإحسـاس عميق بـالتضـامن الانسـاني ، كـالاشتـراكيـين ، والفوضويين ، أو رجال الدين . بينما لم يشعـر فرويـد بهذا الأمـر الا قليلاً جداً أو لم يشعر به على الاطلاق . كان يهتم بنفسه ، بعائلتـه ، بأفكـاره ، بالطريقة التي تميّـز الطبقة الوسطى . من هذا المنطلق الفكري نفسـه كتب بعد سبعة عشر سنة الى صديقه فليس بمناسبة السنة الجديـدة 1900 : « ان القرن الجديد ـ الذي يهمنا ، خاصة لأنه يتضمن تاريخ موتنا ـ لم يجلب لي شيئاً سوى مراجعة غبية »(1) . هنا أيضاً نجد مـرة ثانيـة الاهتمام الانـوي نفسه الذي يرتبط بموته الخاص دون أي إحساس بالعالمية والتضـامن الذي يضنّ بها فرويد على الطبقات السفلى .

---

(1) « ولادة التحليـل النفسي » . رسـالـة من فـرويـد الى فليس . منشـورات P.U.F. بـاريس 1956 . ص 273 .

IV ـ تبعيته للرجال

إن تبعية فرويد لشخص الأم لا تقتصر على زوجته وأمه . بل نقلها الى الرجال أيضاً : الأكبر سناً كبروير ، والمعاصرين كفليس ، والتلاميذ كيونغ . لكن فرويد كان ذو كبرياء شديد إزاء استقلاله ويبدي حدة عنيفة أمام فكرة من هذا النوع . كان غروره يدفعه لكبت كل وعي بهذه التبعية ورفضها تماماً ، بأن يقطع كل علاقة صداقة منذ اللحظة التي يشعر فيها أن الصديق لا يقوم تماماً بدوره الأمومي . لهذا السبب اتخذت علاقاته مع الأصدقاء منحى واحداً : صداقة مكثفة خلال بضع سنوات ، ثم قطيعة تامة ، تصل بشكل عام الى حد الكراهية . تلك كانت نهاية علاقاته مع بروير ، فليس ، يونغ ، آدلر ، رانك ، وأيضاً مع فرنيزي التلميذ المثالي الذي لم يفكر يوماً في الانفصال عن فرويد وعن حركته .

كان بروير زميلاً لفرويد ، أكبر منه سناً ، عرف نجاحاً باهراً في مهنته ، وهو الذي دله على نواة الفكرة التي ستتطور وتصبح فيما بعد التحليل النفسي . عالج بروير مريضة اسمها (آنا . أو .) واكتشف أنها عندما تكون في حالة تنويم مغناطيسي ويطلب منها أن تقول ما يعذبها ، ترتاح من الأعراض التي تزعجها (إنحطاط وتشوش) . أدرك بروير أن سبب هذه الأعراض يكمن في اضطراب عاطفي أصاب المريضة أثناء عنايتها بوالدها ، كما أدرك أيضاً أن الاستدلال على الأعراض اللاعقلانية

يتم بمجرد اكتشاف أصلها . وهكذا ، حمل برويير الى فرويد اقتراحاً من أكثر الاقتراحات أهمية في حياته . وهو اقتراح أصبح أساساً للفكرة المركزية في التحليل النفسي . وقد تصرف برويير تجاه فرويد كصديق أبوي الى درجة أنه قدم له مساعدة مادية لا يستهان بها . فلماذا انتهت هذه العلاقة إذاً ؟ لا شك أنهما عرفا إختلافات نظرية متنامية لأن برويير رفض إتباع فرويد في جميع أطروحاته المتعلقة بالجنس . ولكن من المؤكد أن اختلافاً نظرياً من هذا النوع ما كان يجب أن يؤدي ، طبيعياً ، إلى قطيعة شخصية شاملة دون أن نشير إلى الكره الذي بدأ يعبر عنه فرويد تجاه صديقه القديم والمحسن إليه . يقول جونز « إن الاختلافات العلمية لا تفسر لوحدها فقط المرارة التي يتحدث بها فرويد عن برويير في مراسلاته مع « فليس » بين 1895 -1900 . وعندما نتذكر ما كان يمثل برويير بالنسبة إليه في الثمانينات ، من كرم ، وتعاطف متفهم وتخالط في المزاج وتألق في الفكر ، نكتشف أن التغيير الذي حصل فيما بعد.كان مفاجئاً حقاً »(1) .

إن ملاحظات فرويد بشأن برويير ذكرها جونز في رسائل غير منشورة موجهة الى فليس . كتب فرويد في 6 شباط 1896 « إنه من المستحيل بالنسبة إليه أن يتفاهم وقتاً أطول مع برويير » . وبعد سنة من تاريخه (29 آذار 1897) كتب يقول « إن مجرد رؤيته (برويير) تحثه على الهجرة » . ويعلق جونز : « إنها كلمات قاسية وهناك ما هو أقسى وأشد ، يبدو من غير المفيد نشره »(2) . إن ردود فعل برويير ليست من الطينة نفسها وهذا ما يبدو بوضوح تام إذا توقفنا عند اللحظة التي أراد فيها فرويد أن يسدد

(1) جونز ـ المرجع السابق . المجلد الأول . ص 281 .

(2) المرجع السابق .

لبرويير ما يتوجب عليه ، فأجاب هذا الأخير بأن المبلغ المذكور يعتبر مسدداً من خلال علاج فرويد لأحد أقارب برويير .

كيف نفسر هذا الانتقال من الحب الى الكره في علاقات فرويد وبرويير ؟ بالنسبة لفرويد نفسه ـ وجونز يتبعه في هذا التفسير الأرثوذكسي ـ هذا التجاذب هو إستمرار وتكرار لتجاذب فرويد من ابن اخته الذي كان يكبره قليلاً ، وهو إحساس برز طوال طفولتهما ، ولكن في هذه الحالة ، كما هو الغالب دائماً ، عندما يبحث التفسير الفرويدي عن فهم التطورات اللاحقة للصور النفسية المستمدة من الطفولة ، تصبح الدلالة الحقيقية للتجاذب مجهولة . وكما أشرنا بإيجاز في بداية هذا الفصل ، كان فرويد ميالاً لتبعية الآخرين ، وفي الوقت نفسه كان يخجل من هذه التبعية ويكرهها . فبعد أن يقبل مساعدة الآخر وعطفه ، يرفض التبعية له بأن يقطع كل العلاقات معه ، ويبعده عن حياته ، ويكرهه . لقد شدد جونز على رغبة فرويد الحادة في الاستقلال ، ولكن بسبب ميله لتأليه بطله من جهة ، وبسبب النقص في البناء النظري الأرثوذكسي من جهة ثانية ، يهمل تماماً سمة التبعية في طبع فرويد ، ويهمل بالتالي الصراع الذي يعيشه بين غرور رغبته في الاستقلال وبين موقفه التبعي والسلبي .

وقد حدث شيئاً مماثلاً جداً في علاقات فرويد مع فليس . وما يثير الانتباه في هذه الصداقة التي بدأت عام 1887 ، هو أيضاً تبعية فرويد لفليس . ففي ذروة هذه العلاقة لم يكف فرويد عن بث أفكاره ، وآماله ، وهمومه لهذا الصديق الذي بادله الاهتمام ، والتعاطف .

وفيما يلي نماذج مميزة لردود فعل فرويد تجاه فليس . فقد كتب اليه في 3 كانون الثاني (يناير) 1899 : « أنني حزين ، وأعيش في الظلمة ،

بانتظار لحظة وصولك ، وعندئذٍ سأشعر مجدداً بأنني على ما يرام . . »[1] .
وفي رسالة أخرى في 30 حزيران (يونيو) عام 1896 كتب يقول :

« إن مزاجي قاتم . لا أستطيع سوى أن أقول شيئاً واحداً ، انني أنتظر بفرح مؤتمرنا القادم [يستخدم فرويد هذا التعبير للدلالة على لقاءاته مع فليس] ، كمن سيُشبع أخيراً جوعه - ويروي ظمأه . لن أحمل اليك سوى أذنين صاغيتين وفم مقفل . إن أنويتي بلغت حداً تريد معه أن تحصل على أكبر قدر من الفائدة الشخصية . أما فيما يتعلق بنظرية الكبت ، فأعتقد أن اقتراحاتك قد تكفي لتبديد بعض الشكوك التي تساورني بشأنها ، كما حصل في موضوع menstruation الذكوري والأنثوي عند الشخص الواحد . قلق ، عوامل كيمائية الخ . . . قد تمدني بالأرضية الفيزيولوجية الصلبة التي سأعتمد عليها في أبحاثي دون الحاجة لشرحها من خلال علم النفس »[2] .

لهذه الرسالة أهمية استثنائية في إطار هذا الفصل ، نظراً للغة التي يلجأ إليها فرويد : فقوله أن فليس « سيشبع جوعه ويروي ظمأه » ، يكشف فعلاً عن تبعيته الشفوية السلبية غير الواعية ، كما من المهم أيضاً أن نلاحظ أن فرويد يعبر عن أمله في اكتشاف أساس فيزيولوجي - وليس نفساني - لفهم العصاب . هذا الأمل ، يعبر ، الى حد ما، عن حنين فرويد القديم للفيزيولوجيا ، ولكن يجب ألا نشطح - كثيراً مع هذه الاشارة . لأن فرويد لم يتعلق حقيقة بفليس بسبب أفكاره الجديدة ، رغم أنه يعبر عن هذه التبعية في تلك الرسالة . بل كان يشعر بأنه يمتلك طاقات خلاقة خارقة ، تدفعنا لاعتبار ما ورد في رسالته الواعية ، على أنه إشباع لتبعية

---

(1) ولادة التحليل النفسي : P.U.F. ص 242 .
(2) المرجع السابق . ص 150 .

عاطفية بحتة . كان فرويد بحاجة لأي شخص يقدره ، يشجعه ، يصغي اليه ، وحتى يغذيه ـ وخلال سنوات ، كان فليس هو الذي سيقوم بهذا الدور .

إن صورة هذه العلاقة تبين بوضوح أنها كانت أحادية الجانب فيما يتعلق بفائدة أحدهما للآخر . ومن الصعب ألا نلاحظ أن فرويد كان طيلة سنوات مراسلاته مع فليس، لا يتحدث إلا عن نفسه وعن أفكاره ، وقلما يشير الى فليس . وقد نجد أحياناً بعض التعابير التي تمدح وجود فليس الشخصي ، لكنها كانت في الغالب ذات طابع شكلي بحت . وقد سجل فرويد نفسه هذا الأمر بقوله (في 2 شباط فبراير 1900) « إنني ألوم نفسي لأنني لا أكلمك إلا عن ذاتي »[1] . ويبدو جلياً أن فليس قد اشتكى من قلة اهتمام فرويد وردوده ، فهذا الأخير يكتب اليه في 3 تشرين الأول ـ أكتوبر ـ 1897 : « لا تنتظر مني رداً على جميع الأسئلة ، وفيما يتعلق ببعض إجاباتي ، آمل أن تعلم أنني قليل المعرفة والخبرة في هذه المواضيع »[2] .

وكما في حالة برويير ، فإن القطيعة حصلت بعد سنوات من الصداقة الحميمة ، وأسبابها تتفق تماماً مع ذلك التجاذب الذي كان يعيشه فرويد . يقول جونز « إننا لا نعرف تماماً » ما هو أصل المشكلة . « ووفقاً لرواية فليس (التي نشرها) ، أن فرويد قد هاجمه بشدة بشكل مفاجىء ، وقد كان ذلك غير محتمل على الاطلاق »[3] . (ولكن إذا أخذنا بعين الاعتبار تجاذب فرويد في صداقاته ، وهو تجاذب يقر به فرويد وجونز على

---

(1) المرجع السابق . ص 275 .

(2) المرجع السابق . ص 193 .

(3) جونز ـ المرجع السابق . المجلد الأول . ص 345 .

حد سواء ، لا يبقى هناك ما يثير الدهشة أو عدم الاحتمال) . ومهما كان سبب هذا الهجوم ، فإننا نستطيع ، من خلال المراسلات بين فرويد وفليس ، أن نكتشف سببين بديهيين لهذا الصراع . الأول ، ان فليس انتقد طريقة فرويد بقوله أن هذا الأخير يقرأ أفكاره الذاتية في أفكار مرضاه ؛ وبما أن فرويد لم يكن أصلاً مستعداً لتقبل النقد ، فإنه من الطبيعي ألا يقبل ذلك أيضاً حين يصدر عن صديق مهمته الرئيسة مساعدته على توكيد ذاته ، وتشجيعه والاعجاب به .

أما السبب الثاني لتلك القطيعة ، فيجب البحث عنه في ردة فعل فرويد، التي تكشف لنا مجدداً ، استعداداته للتلقي . إن اكتشاف فليس الأساسي هو وجود الثنائية الجنسية لدى كل شخص ، رجلاً كان أم امرأة .

لنقرأ ما يرويه جونز بهذا الصدد :

« أثناء لقائهما الأخير في Achensee ، في صيف 1900 ، تحدث فرويد الى صديقه عن هذه الفكرة ، وكأنها شيء جديد تماماً ، فأجابه فليس : « ولكني حدثتك عنها ذات مساء في Breslau ، ونحن نتنزه ، لكنك لم ترغب في القبول بها » . لقد نسي فرويد هذه المحادثة تماماً ، وأصر على أنه لا يعرف عنها شيئاً . إلا أنه ، لم يعترف بتذكرها إلا بعد أسبوع »[1] . ثم يضيف جونز التعليق التالي :

« حالات خطيرة من النسيان ! لقد كتب فرويد قبل سنة من ذلك التاريخ (أول آب ، أغسطس ، 1899) : « فيما يتعلق بالثنائية الجنسية ، أنت محق تماماً . إنني أعتاد أيضاً على اعتبار كل عمل جنسي ، على أنه

---

(1) المرجع السابق . المجلد الأول . ص 345 -346 .

حدث يطال أربعة أشخاص » . وفي السنة السابعة (4 كانون الثاني ، يناير 1898) عبّر عن حماسه بالصيغة التالية : « لقد تبنيت كلياً مفهومك للثنائية الجنسية ، واعتبره ، بالنسبة لأعمالي ، الأكثر أهمية منذ مفهوم « الدفاع » » .

لا يحاول جونز أن يفسر هذا « النسيان » من وجهة نظر تحليلية . مع العلم أن التفسير شديد الوضوح . إن فرويد ينزع للتلقي والابتلاع ، ثم يبذل الجهد ، خاصة مع أصدقائه الحميمين ، لاعتبار أن فكرة ما هي من نتاجه ، مع علمه أنها لم تصدر سوى عن هؤلاء الأصدقاء . هذا السياق ، يبدو أيضاً بوضوح أشد إذا قرأنا رسالة فرويد الى فليس ، بعد سنة من ذلك اللقاء المشؤوم في Achensee . ففي هذه الرسالة المؤرخة في 7 آب أغسطس ، 1901 ، يعلن فرويد : « من المستحيل أن نخفي ، أنت وأنا ، أننا ابتعدنا عن بعضنا، ان كل الأشياء الصغيرة تبين لي ذلك . . . لقد بلغت حدودك . إنك تتخذ موقفاً ضدي بقولك « ان من يقرأ فكرة الآخرين لا يفعل سوى قراءة أفكاره » ، مما يجرد أبحاثي من أي قيمة .

بعد هذا الغضب من ملاحظات فليس النقدية ، يعلن فرويد بشكل مفاجىء :

« لننتقل الآن الى الموضوع الرئيسي . إن عملي القادم سيحمل العنوان التالي : « حول الثنائية الجنسية عن الانسان » . وسأعرض فيه المشكلة من أساسها ، كما سيضم الأكثر عمقاً مما يمكنني قوله حول هذا الموضوع . . . إن الفكرة بحد ذاتها هي فكرتك . أتذكر أنني قلت لك منذ سنوات حين كنت لا تزال جراحاً : « ان الحل يكمن في الجنس » ، وانك بعد عدة سنوات صححت هذا الرأي بقولك ، « في الثنائية

الجنسية » ، وأرى الآن أنك محق . وقد يكون لديّ بعض الأفكار الأخرى التي أخذتها عنك ، وقد ترغمني نزاهتي على رجائك أن توقع هذا الكتاب معي . وفي هذه الحالة ، ان القسم التشريحي ـ البيولوجي الذي اختصرته سوف يتسع ، وسوف اقتصر على دراسة الجانب النفساني للثنائية الجنسية ومعالجة العصاب . تلك هي مشاريعي المستقبلية ، التي أرجو ، أن تسمح باستعادة تفاهمنا التام ، حتى في الميدان العلمي »(1) .

تستحق هذه الرسالة تحليلاً مفصلاً . فلماذا يعلن فرويد عن هذا الكتاب تحت عنوان مغاير تماماً لاطار دراساته حول العصاب ، كما أن الكتاب بالمقابل هو النقطة المركزية في نظرية فليس ؟ ولماذا يدعي فرويد ، وهو المتواضع دائماً ، أن هذا الكتاب « سيقول الأشياء الحميمة والأكثر عمقاً » ؟ لا شك أن الاجابة ، هنا لن تختلف عن الاجابة على سؤالنا لماذا تمنى عام 1896 ، « ميداناً فيزيولوجياً صلباً » بمساعدة فليس ، ولماذا نسي عام 1900 أن فليس هو مكتشف الثنائية الجنسية . لقد كان يتمنى دون وعي منه ، أن يمتلك اكتشاف صديقه ، لا لأنه كان بحاجة اليه ، بل بسبب رغبته العميقة في التلقي ، وفي التغذية كطفل . ومن الواضح أن فرويد ، عندما كتب هذه الرسالة ، كان واعياً تماماً لصراعه مع فليس ، وخاصة فيما يتعلق بمسألة تبني فكرة الثنائية الجنسية . لكنه يعقلن موقفه بطريقة حاذقة . فبعد أن يقبل بأن « الفكرة نفسها صدرت منك » ، يذكّر فليس بأنه حينما كان « لا يزال » اختصاصياً في أمراض الأنف وجراحاً، كان هو أي فرويد،قد اكتشف أن «الحل يكمن في الجنسية»، أي ان اكتشاف فليس ليس سوى « تصحيحا » . ولكن حتى هذه العقلنة لا يبدو أنها تقنع فرويد نفسه ، لأنه يتابع قائلاً ، بأنه سيجد نفسه

---

(1) ولادة التحليل النفسي . المرجع السابق . ص 296 -297 .

مرغماً ، بكل نزاهة ، على أن يطلب من فليس أن يضيف توقيعه الى توقيعه . ولا يبرز ذلك بشكل تساؤ ل ، بل يقول : « تلك هي مشاريعي المستقبلية ، التي أرجو ، أن تسمح باستعادة تفاهمنا التام ، حتى في الميدان العلمي » . وفي الواقع ، لم يؤلف فرويد هذا الكتاب الذي يعتبر خارج دائرة اهتماماته أبداً . ان فكرة الكتاب كلها لم تكن سوى محاولة أخيرة لارغام فليس على لعب دور الأم التي تغذي ، وفي الوقت نفسه ، هو اعداد للقطيعة التامة إذا لم يكن فليس على استعداد لقبول هذا الالتزام .

لم يتبع هذه الرسالة سوى عدد ضئيل منها . ويبدو أن فليس انتقد مشروع فرويد لكتابة « الثنائية الجنسية » . فأجابه هذا الأخير (في 19 أيلول ـ سبتمبر 1901) : « لم أفهم جوابك بشأن الثنائية الجنسية . لا شك أننا نعاني كثيراً لنتفاهم . إن هدفي الوحيد كان المساهمة الشديدة في نظرية الثنائية الجنسية ، والاضافة اليها ان الكبت والعصاب ، أي استقلالية اللاوعي ، تفترض وجود هذه الثنائية »(1) . ولكن ، إعلان فرويد عن مشروعه بشأن كتاب عن « الثنائية الجنسية » يعطي انطباعاً مختلفاً تماماً عن الشرح الذي يعطيه في هذه الرسالة .

كانت الرسائل اللاحقة شديدة الندرة ، وغير شخصية ؛ فهي تتناول المرضى الذين أرسلهم فليس الى فرويد . والاخيرتان منها ، تضمنتا وصفاً مفصلاً للطريقة التي عُيِّن بها فرويد بروفسوراً في جامعة فيينا . هذه المراسلات ، تضع حداً لصداقة من أكثر الصداقات حميمية ، دامت ثماني سنوات .

تجربة ثالثة من النوع نفسه . وإن كانت أقل حميمية وأقل شخصية

---

(1) المرجع السابق . ص 299 .

من علاقات فرويد مع برويير وفليس ؛ هذه التجربة حصلت في علاقاته مع كارل غوستاف يونغ . هنا أيضاً نلاحظ السياق نفسه ، آمال كبيرة ، وحماس كبير ، ثم قطيعة . ولكن هناك حتماً اختلاف بين علاقات فرويد مع برويير وفليس وعلاقاته مع يونغ . فبرويير كان مرشداً وناصحاً ، وعلّمه نظرية جديدة حاسمة . وفليس كان مساوياً له ؛ بينما كان يونغ تلميذه . هذه الاختلافات ، قد تبدو لأول وهلة متناقضة مع فرضيتنا التي تقول بأن تبعيته لأصدقائه برزت في الحالات الثلاث . وإذا قبلنا بوجود تلك الحالة في علاقته مع برويير أو حتى مع فليس ، فكيف يمكن أن نتحدث عن تبعية الاستاذ لتلاميذه ؟ ولكن إذا نظرنا الى الأمور ، من زاوية ديناميكية ، فإننا لن نجد أي تناقض حقيقي . هناك تبعية بديهية وواعية في الطريقة التي يتعلق بها انسان ما بشخص الأب ، و« بمساعد سحري » ، وبمتفوق ، الخ ـ. ولكن هناك تبعية غير واعية في الطريقة التي يتبع بها شخص مسيطر الذين يتعلقون به . في هذا النمط من العلاقات التكافلية يتعلق كل واحد بالآخر ، ولكن مع فارق الوعي بتلك التبعية عند أحدهما وعدم الوعي بها عند الآخر .

هذا النوع من التبعية يبدو بوضوح تام إذا راقبنا بداية علاقات فرويد مع يونغ . كان فرويد شديد الحبور لأن مجموعة سويسرية من المحللين النفسانيين ، بينها برويير مدير Burghölzi ، ومساعده الأول يونغ ، أبدت اهتماماً فعالاً بالتحليل النفسي . يقول جونز بهذا الصدد : « إن فرويد ، من جهته ، لم يكن مديناً فقط لهذا الدعم الذي أتاه من الخارج ، بل كان شديد الإعجاب بشخصية يونغ . ثم قرر أن يكون هذا الأخير خليفته ، وكان يسميه أحياناً « ابنه ووريثه » . وكان يعتبر أن فكر يونغ وGross هو الفكر الوحيد الأصيل بين تلاميذه . وأن يونغ سيكون

بمثابة « عيسى » الذي سيكتشف ميدان الطب النفسي ، بينما لن يُسمح لفرويد ، على غرار موسى ، سوى بالنظر من بعيد »[1] . ولكن هناك سمة أخرى هامة في موقف فرويد من يونغ . فحتى ذلك الحين ، كان معظم مؤيدي فرويد نمساويين ويهود . لكن هذا الأخير كان يرى أنه من الضروري ، لنجاح حركة التحليل النفسي في العالم نجاحاً تاماً ، أن يتولى قيادتها « آريون » . وقد عبّر بوضوح شديد عن هذه الفكرة في رسالة الى كارل ابراهام عام 1908 ، ينتقده فيها بشأن مشاجرة غير مفيدة مع يونغ ، إذ يقول في نهاية تلك الرسالة :

« وفي مطلق الأحوال ، إن وجود أصدقائنا الآريين لا يمكن الاستغناء عنه على الاطلاق ؛ ان التحليل النفسي ، من غير وجودهم ، يصبح ضحية العداء للسامية »[2] .

هذه الفكرة كانت تتنامى بقوة عند فرويد في السنتين اللاحقتين على تلك الرسالة . فقد حصلت أثناء مؤتمر التحليل النفسي في نورمبورغ عام 1910 ، حادثة سبقت الإشارة إليها : تؤكد ما ذهبنا إليه . « كان فرويد يعرف تماماً فائدة توسيع أعمال التحليل النفسي على قاعدة أكثر اتساعاً مما يمكن أن يحققه اليهود النمساويون ، لذا كان عليه إقناع زملاءه من فيينا . وقد علم ان العديد منهم يعقد اجتماع احتجاج في فندق Stekel ، فذهب الى هناك لاقناعهم . وشدد أمامهم على العداوة العنيفة التي تحيط بهم في فيينا ، وعلى ضرورة مواجهتها عبر دعم خارجي . ثم ، وبحركة مؤثرة ، نزع معطفه ، قائلاً : « إن أعدائي سيسرون جداً لرؤيتي أموت

---

(1) جونز . المجلد الثاني . ص 35 .

(2) جونز . المجلد الثاني . ص 53 .

جوعا ؛ وسينزعون عني حتى ملابسي »[1] .

إن ما مر في خاطر فرويد آنذاك شديد الوضوح . فليس خوفه الشخصي من الموت جوعاً هو الهاجس ، بل خوفه من موت « حركته » جوعاً ، هو الذي دفعه للبحث عن بونغ كمخلص ومنقذ لتجنب هذه الكارثة .

أراد فرويد أن يكسب يونغ بشكل تام الى جانبه ، أن يجعل منه وريثه وزعيم حركته . هذه الرغبة كانت شديدة البروز أثناء حادث صغير وقع في الفترة التي سافر فيها فرويد الى الولايات المتحدة برفقة يونغ وفرينزي. فقد جلس ثلاثتهم الى الغداء ، وحاول فرينزي ، وفرويد ، إقناع يونغ بالتخلي عن مبدأه ، ومشاركتهم قدحاً من النبيذ . إن الامتناع يعتبر صلة بين يونغ واستاذه بلولر ، وكذلك بين الكثير من زملائه السويسريين ، وهكذا يصبح مجرد تناول النبيذ رمزاً لتخلي يونغ عن ولائه الرئيسي لبلولر ، ولاقترابه من فرويد . وفي الواقع ، كان لتبديل ذلك الموقف انعكاسات خطيرة على العلاقات بين يونغ وبلولر .

إلى أي مدى كان فرويد نفسه يشعر بالدلالة الرمزية لطقس الشرب هذا ؟ إن ذلك يبرز من خلال إغمائه بعد تلك الحادثة مباشرة . وإذا كان ثمة شك حول الأصل النفسي لهذا الاغماء ، فإنه لا يلبث أن يتبدد إذا أدركنا أن فرويد فقد وعيه مرة ثانية في موقف مماثل . فقد تدهورت العلاقات خلال عام 1912 ، بين فرويد ويونغ . وفي المؤتمرات التي حضرها هذا الأخير في نيويورك ، تبين موقفه المناقض لنظريات فرويد ، ولفرويد نفسه . وكان سبق ليونغ أن قال لفرويد ، ان الرغبات المحرمة لا

---

(1) المرجع السابق ص 73 .

يجب أن تُفهم كما هي ، بل كرموز لميول أخرى . ثم التقيا ثانية في ميونخ في تشرين الثاني ـ نوفمبر ـ 1912 . وانتقد فرويد اتجاهات يونغ غير الموالية فكان هذا الأخير « نادماً جداً » وتقبل الانتقادات كافة ووعد باصلاح نفسه . وخلال الغداء الذي تلا ذلك ، « بدأ فرويد بتوجيه الانتقادات الى السويسريين يونغ وريكلان Riklin ، لكتابتهما في مجلات سويسرية ، مقالات في التحليل النفسي ، دون الإشارة إلى اسمه . فأجاب يونغ بأنهما لم يفكرا بأن ذلك ضروري ، لأن صلة فرويد بالتحليل النفسي كانت معروفة جداً » . إلا أن فرويد أصر على ذلك ، ويقول جونز : « اذكر ، إنني اعتقدت أنه جعل من الأمر مسألة شخصية . فجأة ، وأمام دهشتنا الشديدة ، وقع على الأرض ، وأغمي عليه ، فحمله يونغ الى أريكة في الصالون ، حيث استعاد وعيه بعد قليل »(1) . لقد حلل فرويد نفسه نزوعه الى الإغماء ، واعتبر أنه يجب البحث عن أصل كل ذلك وتأثيره عليه ، في موت أخيه الأصغر عندما كان له من العمر سنة وسبعة أشهر .

قد يكون هذا التفسير صحيحاً ، ولكن علينا أن نعتبر أن إغماءات فرويد أيضاً، يمكن اعتبارها رمزاً لعجز الطفل وتبعيته نحو شخص الأم . وما يؤكد هذا الأمر أن فرويد عندما كان قبل عدة سنوات ، مع صديقه فليس في المدينة نفسها وفي الفندق نفسه ، أغمي عليه للمرة الأولى . وقد وصف فرويد هذا الحادث في رسالة الى جونز ، مضيفاً : « يجب أن يكون هناك عنصراً متمرداً من الثنائية الجنسية أساساً لكل ذلك »(2) . ومن المحتمل بشكل كبير ، أن خلف إغماءات فرويد في علاقاته مع يونغ وفليس ، يجب اكتشاف قضية مشتركة : تبعية عميقة لا واعية ، تجد

(1) المرجع السابق . المجلد الأول . ص 348 .

(2) المرجع السابق .

تعبيراً عنها في أعراض نفس ـ جسدية .

ينبغي أن نضيف أن فرويد نفسه كان واعياً لميوله التبعية التي عبر عنها بقوله « هوامات الفقير » . وهو يشير إليها في بعض المناسبات ، عندما يتحدث عن آل Richetti في باريس ، الذين يحبونه كثيراً ولا أولاد لديهم ، كيف أثاروا عنده هواماً : فقد ظن أنه سيرث قسماً من ثروتهم . ثم يسرد هواماً آخر من النوع نفسه بعد عدة سنوات حيث يوقف فيه حصاناً جامحاً ، ويترجل شخص كبير الأهمية من السيارة ويقول له : « أنت منقذي ـ إنني مدين لك بحياتي ـ ماذا أستطيع أن أفعل لك ؟ » . ان ردة فعل فرويد الشخصية إثر هذا الهوام شديدة الدلالة : « فقد كبت أفكاره بسرعة في اللحظة نفسها ، ولكنه بعد عدة سنوات ، أثارها مجدداً بمواربة غريبة ، وذلك باكتشافه أنه نسبها خطأ الى حكاية كتبها ألفونس دوديه . كانت ذكرى مملة ، لأنه في تلك اللحظة تجاوز حاجته السائبة في الحماية ، وتخلى عنها بقوة . « ولكن الجانب الأكثر إثارة للغضب في كل ذلك (يقول فرويد) ، وجود القليل من الأمور التي لا أطيقها كأن أكون محمياً من شخص ما . إن كل ما نستطيع روايته في هذا النوع ، في بلادنا التي تفسد حتى الرغبة الصغيرة ، انني قليل التكيف مع دور الطفل المحمي . لقد عشت دائماً رغبة قوية في أن أكون أنا نفسي ، رجلاً قوياً »[1] .

إنها إحدى توكيدات فرويد الغريبة الساذجة ، التي تعتبر بوضوح تام دلالة للمقاومة ، مع العلم أنها شديدة الجدية بالنسبة اليه . ذلك هو جوهر الصراع : إنه عضو يكره أن يكون محمياً من أحد ، وفي الوقت نفسه ، يريد أن يكون كذلك ، يريد أن يكون محط اعجاب ، وموضع

---

(1) المرجع السابق . ص 208 .

اهتمام . ولم يتوصل مطلقاً الى حل لهذا الصراع .

وإذا عدنا الى علاقات فرويد مع يونـغ ، نجد أنها سلكت السبيـل نفسه في علاقاته مع بروير وفليس . وبالرغم من تأكيدات الولاء المتكـررة عند يونغ ، فإن علاقاتهما الشخصية ، وآرائهما العلمية أصبحت شيئاً فشيئاً أكثر استبعاداً ، حتى انتهت عام 1914 بقطيعـة نهائية . ولا شـك أن ذلك كان ضربة شديدة القساوة بالنسبة لفرويد . فهو قد تعلق من جديد برجل فتـح له قلبـه وشؤ ونـه وشجـونـه ، واعتبـره بمثابـة من سيحفظ مستقبـل الحركة ، إلا أنـه مجدداً أيضـاً يقطع عـلاقته معـه . ولكن هناك فـرق بين القطيعة مـع يونـغ ، وبين قـطيعته مـع كل من بـرويير ، فليس ، آدلـر ، ستيكل ، رانك ، وفرنيزي ، لأن اختلافاته العلمية مع يونـغ كانت أكـثر أساسية مع يونغ منها مع الآخرين . لقـد كان فـرويد عقـلانياً ، وأراد أن يفهم اللاوعي من خلال الرغبة في السيطرة عليه ومـراقبته . لكن يـونغ ، كان على عكس ذلك ، ميالاً الى التراث الرومانطيقي ، غير العقلاني . إن العقل والتفكير موضع اتهام ، واللاوعي الذي يمثل ما هو غـير عقلاني هـو المصدر العميق للحكمة . إن وظيفة العلاج التحليلي ، بالنسبة ليونغ ، ان تساعد المريض للاتصال بهذا المصدر من الحكمة غير العقلاني ، من أجـل الفائدة . إن اهتمام يونغ باللاوعي كان اهتماماً رومانتيقياً ؛ بينما وجد فيه فرويد اهتماماً نقدياً عقلانياً . كان باستطاعتهما الالتقاء برهـة من الزمن ، أثناء مرورهما ، لكنهما كان يسيران في اتجاهين متعارضين ، والقطيعة كانت حتمية .

إن علاقات فرويد مـع الآخرين الـذين اعتمد عليهم بثقـة كبيرة ، وبشكل خاص آدلر ، رانك ، وفرنيزي ، لاقت مصير علاقاته نفسهـا مع بروير، فليس ويونغ : صداقة حـارة ، ثقة ، وتبعيـة ، وتحول كـل ذلك

آجلاً أم عاجلاً إلى شك وكراهية . وسنعود فيما بعد إلى بعض هذه العلاقات .

V ـ علاقاته مع والده

كانت علاقات فرويد مع والده ، نقيض علاقاته مع أمه . فقد كانت تدلله ، تؤثره ، وتسمح له بأن يكون الملك بين أخوته وأخواته ؛ بينما كان والده غير متحيز ، وغير عدواني في الوقت نفسه . والطرفة التالية تبين هذا الاختلاف بوضوح : ففي سن الثانية ، كان سيجموند الصغير لا يزال يبلل فراشه ، وكان والده ، وليس والدته هو الذي يوبخه بهذا الشأن . بماذا كان يجيب الطفل الصغير؟ « لا تقلق يا أبي ، سأشتري لك سريراً جميلاً جديداً أحمر اللون من Neutits chein »(1) . نلاحظ هنا ، السمات التي ستميز فرويد فيما بعد : صعوبة في تقبل النقد ، ثقة مفرطة في الذات ، تمرد على الاب ، وحتى يمكننا القول ، سلطة أبوية يمارسها بنفسه . ففي سن الثانية لا ينفعل بتوجيهات والده ، بل يضع نفسه مكانه ، أي في مكان من يستطيع أن يقدم هدية للآخر فيما بعد (أنظر أيضاً ، بهذا الصدد ، حلمه حول « المعطف التركي ») .

يمكن أن نجد تعبيراً أكثر حيوية عن تمرد فرويد إزاء والده ، ففي السابعة أو الثامنة من عمره ، قام بالتبول إرادياً في غرفة نوم والديه . هنا ، امتلاك رمزي لهذه الغرفة ، يرتبط بميل عدواني موجه حتماً نحو

---

(1) جونز ـ المرجع السابق . المجلد الأول . ص 7 .

الأب . ويرد هذا الأخير بغضب قائـلاً : « لن نفعل شيئـاً بهذا الـولد » . وفي تعليقه على هـذا الحادث ، كتب فـرويد قـائلاً : « لقـد أهانني ذلـك كثيـراً ، لأن أحـلامي تتضمن إشـارات غـزيـرة الى تلك القصـة ؛ وهي مصحوبة دائماً بتعداد لاعمالي ولحاجاتي ، وكأني أريـد القول : انـك ترى جيداً أنني أصبحت شيئاً ما

إن الشرح الذي يعطيه فرويد هنا ، معتبراً أن ملاحظة والده كانت « السبب » في طموحه ، هو من الأخطاء التي نصادفها غالباً في التفسيرات التحليلية الارثوذكسيـة ، فإذا كـان مؤكداً أن التجـارب المبكرة تعتبـر من الأسباب الشديدة الأهمية في التطور اللاحق ، فإنه ليس من النادر أيضاً أن تثير استعدادات الطفل المسبقة ـ المكتسبة أو الموروثة ـ ردود فعل من الأهل تعتبـر خطأ « سببـاً » في تطور هـذا الاستعداد المسبق نفسـه ، في الـوجـود اللاحق للطفل .

وفي الحالة التي تهمنا ، من الجليّ أن فـرويد الصغـير ذا السنتان من العمر ، كان يشعر بإحسـاس بالأهميـة والتفوق تجاه والده . وسـواء أكان ذلك نتيجة عنصر تكويني ، أو لأن والدته هي العنصر الأقوى في الأسرة ، فإن سلوك فرويد الاستفزازي في السابعة من العمـر ، لم يكن سوى تعبـير « إضافي » عن ثقة الـطفل الصغـير المفرطـة في ذاته ، التي استمـرت طيلة حياته ، بينـما لم تكن ملاحـظة والده سـوى ردة فعل عـادية ، تصـدر عن رجل غير عدواني ، كـان كمـا يقول جونز ، يفخر بابنه ، وغير معتـاد على تأنيبه . هذه الملاحظة ـ الفريدة من نوعها ـ لا يمكن أن تكون سبباً لطموح فرويد .

إن إحساس فرويد بالتفوق تجاه والده ، استمد تحريضاً جـديداً من

(1) تفسير الأحلام . PUF -1967 ص 191 .

خلال قصة رواها له هذا الأخير ، عندما كان في الثانية عشرة من العمر . فحين كان والد فرويد شاباً ، نـزع له أحـد المسيحيين ذات يـوم طاقيـة الفـرو عن رأسـه ، صـارخـاً في وجهـه : « أيهـا اليهـودي ، تنـح عن الرصيف ! » وعندما سمع هـذه القصة ، سـأل سيجمونـد الصغير والـده بغيظ :

- وماذا فعلت ؟ » .

ـ لقـد التقطت طاقيتي ، أجاب الوالد .

بعد سرده لهـذا الحادث ، يقـول فرويـد : « لم يبدو لي ذلـك عملاً بطولياً من الرجل الكبير والقوي الـذي يمسك بيـدي . وقد واجهت هـذه القصة التي لم تعجبني بأخـرى أكثر مـلائمة لمشـاعري : تلك التي يـطلب فيها هاميلقـار من ابنه أن يقسم أمـام المذبـح على الانتقـام من الرومـان . ومنذ ذلك الحين اتخذ هنيبعل دائماً مكاناً كبيراً في هواماتي »(1) .

من الواضح أن قصة موقف الأب « غير البطولي » لم تكن لتثير عند فرويد مثل هذا الاحساس لو لم يكن متماهياً أصلاً منذ طفولته مـع البطل هنيبعـل ؛ كان يتمنى والـداً جديـراً به . ولكن يجب ألا ننسى أن طمـوح فـرويد كـان ، كما تكـون المطامـح عادة ، عنصـراً من مواهبـه المميـزة في الشجـاعة والكبـرياء . هـذه الشجـاعـة هي التي وهبت لفـرويـد حتى في طفولته صفات ومثال البطل ، ولذلك لا يمنع البطل نفسه من الخجل إزاء أب مجرد من البطولة .

ويشير فرويد نفسه في تفسير أحد أحلامه الخاصة الى إحسـاسه تجـاه فكرة أن والده لم يكن رجلاً مميزاً .

« إذا كنت قد استبدلت مينـار (بروفسـور الطب العقـلي في جامعـة

(1) المرجع السابق . ص 175 .

فينا) بوالدي ، فليس ذلك لتشابهها بالنسبة لي ، بل لافتراض مشروط ومكثف ، لكن شديد الوضوح في تفسيره : فلو كنت من الجيل الثاني ، ابناً لبروفسور أو لعضو في مجلس القصر الخاص ، لتقدمت ، دون شك ، بسرعة أكبر . لقد جعلت والدي في الحلم ، بروفسوراً وعضواً في المجلس »(1) .

إن تجاذب فرويد تجاه شخص الأب ينعكس أيضاً في انتاجه النظري . فتركيبته لبداية التاريخ الانساني في « الطوطم والحرام » تتضمن قتلاً بدائياً للأب من أبنائه الذين يحسدونه : وفي آخر عمل له « موسى والتوحيد » ، نفى أن يكون موسى يهودياً وحاول أن يبرهن أنه كان ابناً لارستقراطياً مصرياً، ولهذا أعلن بطريقة لا واعية : « كما أن موسى لم يكن سليل يهود وضيعين ، أنا أيضاً لست يهودياً ، بل رجلاً ذا أصول ملكية »(2) .

ولكن احدى أكثر التعبيرات دلالة عن موقف فرويد المتجاذب من والده ، نجدها بكل تأكيد في إحدى مفاهيمه المركزية وهي عقدة أوديب : الابن الذي يكره والده الذي ينافسه على حب الأم . ولكن هنا ، كما في حالة الارتباط بالأم ، يخفي التفسير الجنسي للتنافس الأسباب الحقيقية والأساسية . إن الرغبة في الحب والاعجاب التي لا حدود لها من جانب الأم ، وفي أن يكون بطلاً فاتحاً في الوقت نفسه ، أدت إلى المطالبة بانتزاع السيادة من الأب ، ومن الأخوة والأخوات . (هذه الحالة تتمثل بوضوح شديد في القصة التوراتية ، يوسف وأخوته ، ويمكن أن نطلق عليها « عقدة يوسف ») . هذا التصرف ، كان يلقى غالباً تشجيعاً من

---

(1) المرجع السابق ص 372 -373

(2) المرجع السابق . ص 180 .

إعجاب الأم بطفلها ، ومن سلوكها المتجاذب والاحباطي نحو زوجها .

ماذا نستخلص من كل ذلك ؟ كان فرويد شديد الارتباط بأمه ، مقتنعاً بحبها وإعجابها به ، يعتبر نفسه شخصاً متفوقاً ، فريداً ، محط إعجاب ، وملكاً بين أخوته وأخواته جميعاً . لقد بقي متعلقاً بشكل دائم بالمساعدة والاعجاب الأمومي ، وكان يقلق ، ويضطرب ، ويُحبط ، في كل مرة لا يتوفر فيها كل ذلك . وفي حين استمرت والدته شخصاً مركزياً في حياته حتى موتها (كان لها من العمر آنذاك أكثر من ثمانين عاماً) ، واضطرت زوجته لممارسة دور امومي باهتمامها بحاجاته المادية ، فقد حول حاجته للاعجاب والحماية ، الى موضوعات جديدة ، وبشكل أساسي نحو الرجال ، وليس نحو النساء . فأشخاص مثل برويير ، فليس ، يونغ ، وأتباعه الأوفياء فيما بعد ، كانوا يوفرون من الاعجاب والثقة ما كان يحتاجه فرويد ليشعر بالاطمئنان . وكما هي الحالة غالباً لدى الرجال المتعلقين بأمهاتهم ، كان والد فرويد ، منافساً له . كان يريد هو ، الابن ، أن يكون الوالد ، والبطل . ولو كان والد فرويد رجلاً قوياً ، لكان من الممكن أن يخضع له فرويد أو أن يكون أقل تمرداً . ولكن بما أنه يتماهى هو نفسه مع الابطال ، كان لزاماً عليه أن يثور ضد أب لا يصلح إلا لابن عادي .

إن موقف فرويد المتمرد تجاه والده ، يُلامس إحدى أكثر الوجوه أهمية في شخصيته التي تبرز في مؤلفاته . يعتبر فرويد غالباً متمرداً . لقد تحدى الرأي العام ، والسلطات الطبية ، ولو لم يكن قادراً على ذلك ، لما أمكنه مطلقاً أن يعلن آراءه عن اللاوعي ، والجنسية الطفلية وغير ذلك . . . لكن فرويد كان « متمرداً » وليس « ثورياً » . والمتمرد ، تعني الشخص الذي يواجه السلطات القائمة ، لكنه يتمنى أن يصبح هو نفسه

سلطة ، (يخضع لها الآخرون) دون أن يتخلى عن تبعيته للسلطة بحد ذاتها واحترامه لها . إن تمرده يتجه أساساً نحو السلطات التي تقبل به ، لكنه إيجابي تجاه تلك التي يختارها بنفسه ، خاصة عندما يصبح أحد أعضائها . إن نموذج « المتمرد » في هذا المفهوم النفساني ، يتكرر غالباً بين بعض السياسيين الراديكاليين الذين يعارضون السلطة طالما أنها ليست في حوزتهم ، لكنهم سرعان ما يصبحون من المحافظين في اللحظة التي تصبح بين أيديهم . بالمقابل ان « الثوري » بالمعنى السيكولوجي للكلمة ، هو الشخص الذي تخطى تجاذبه تجاه السلطة ، لأنه تحرر ذاتياً من ارتباطه بها ، ومن رغبته في السيطرة على الآخرين . إنه يحقق هكذا ، الاستقلال الحقيقي ويتجاوز عطشه للسيطرة على الآخرين . من خلال هذا المفهوم ، كان فرويد متمرداً ولم يكن ثورياً . ففي الوقت نفسه الذي تحدى فيه السلطات ، وشعر بسرور ذلك التحدي ، كان شديد التأثر بالنظام الاجتماعي القائم وبالذين يمتلكون السلطة . إن الحصول على لقب بروفسور ، والاعتراف به من السلطات المعنية ، كان غاية في الأهمية بالنسبة اليه ، رغم نفيه لذلك ، مع لا وعي غريب برغباته الذاتية . لقد كان فرويد خلال الحرب العالمية الأولى ، مواطناً متحمساً ، فخوراً بالبسالة النمساوية ، ثم بالعدوانية الألمانية ، وخلال ما يقارب الأربع سنوات ، لم يخطر بباله أبداً ، أن يجعل الايديولوجيات المقاتلة ، وأهداف القوى المركزية موضع شك وتساؤ ل .

VI ـ استبداديته

أثارت استبدادية فرويد نقاشات واسعة . وهناك تأكيد عام على أنه كان ذو استبدادية قاسية ، لا تسمح بأي مراجعة أو انتقاد لنظرياته الخاصة . ومن العسير ألا نلتفت الى جملة البراهين التي تثبت هذا الأمر . لأن فرويد لم يقبل مطلقاً أي اقتراح مهما بلغت أهميته لتعديل نظرية من نظرياته . فإما أن نكون كلياً الى جانب نظريته ـ وهذا يعني الى « جانبه هو » ـ وإما أن نكون ضده . وحتى ساخس Sachs في « سيرة فرويد » التي تعتبر بمثابة تأليه له ، كان مرغماً على الاعتراف بذلك : « كنت أعلم أن من الصعب عليه دائماً أن يتقبل آراء الآخرين بعد أن يعرض آراءه خلال سياق طويل وجاد »(1) . وفيما يتعلق باختلافاته الشخصية مع فرويد ، يقول ساخس : « لو كان رأيي مخالفاً لرأيه ، لقلت ذلك بصراحة . كان يمنحني دائماً الوقت اللازم لشرح نظرياتي ، مصغياً باهتمام لبراهيني ، لكنه لم يكن ليهتز أمامها أبداً »(2) .

إن المثال الأبرز على عدم تسامح فرويد واستبداديته ، نعثر عليه في علاقاته مع فرنيزي ، الذي كان طيلة سنوات عديدة ، تلميذه وصديقه

---

(1) Hanns Sachs- Freud Master and Friend. Harverd press University press. Cambridge- 1946- p. 14.

(2) المرجع السابق ص 13 .

الأكثر ولاءً ، والأقل إدعاءً . وقد رأى في خريف حياته أن المريض يحتاج للحب ، وهو الحب الضروري الذي لم يعشه في طفولته . قادته هذه الفكرة الى بعض التعديلات في التقنية التحليلية ، فانتقل من الموقف الجامد غير الشخصي للمحلل (موقف المرآة) الذي اقترحه فرويد ، واتجه الى سلوك انساني محب تجاه المريض . (من نافل القول ، التذكير بأن ما يقصده فرنيزي في فكرته هو السلوك الأمومي ، أو الأمومي والأبوي معاً ، وليس الحب الشهوي أو الجنسي) .

وقد روى فرنيزي نفسه ، خلال نقاش مع تلميذة مخلصة ، ردة فعل فرويد إزاء هذا التجريد :

« عندما زرت البروفسور ، أطلعته على آخر أفكاري التقنية ، والتي تعتمد تجريبياً على العمل الذي قمت به مع مرضاي . لقد حاولت ، من خلال ما يرويه هؤلاء ، ومن خلال تداعي أفكارهم ، وتصرفاتهم ، - حتى في أدق تفاصيلها وخاصة فيما يتعلق بي - والحرمان الذي يثير غضبهم أو إحباطهم ، والمضمون الواعي وغير الواعي لرغباتهم ، ان اكتشف طريقة معاناتهم لرفض الأم أو الأهل أو لمن هو في مكانهم . كما حاولت أيضاً ، أن أتخيل أي نوع من العناية العاطفية ، حتى في تفاصيل السلوك الشخصية ، كان المريض يحتاج حقيقة في تلك الفترة المبكرة من حياته : الاهتمام العاطفي ، أي طريقة تغذيته وحبه ، التي تسمح له بالشعور بالثقة بنفسه ، بالتمتع بالحياة ، وبالتطور . كل مريض يحتاج إلى تجربة مختلفة في مسألة الحنان ، والعناية اللازمة لمساعدته . وليس من السهل اكتشاف طبيعة ذلك ، لأنه ليس ما يعتقده غالباً ، بل هو شيء آخر تماماً . ولكني أستطيع تلمس ذلك عندما أكون في الاتجاه السليم : لأن المريض عندئذٍ ، يعطي مباشرة إشارة لا واعية من خلال عدد من

التغيرات الصغيرة في مزاجه وتصرفه . وحتى أحلامه تظهر كجواب على علاج نافع وجديد : كل ذلك يجب أن يُنقل الى المريض : تفهم المحلل الجديد لرغباته ، التغير في العلاقات الذي ينتج عنه ، وطريقة المحلل في التعبير عن ذلك ، وردة فعل المريض نفسه . وفي كل مرة يخطىء المحلل فيها ، يعطيه المريض الاشارة مجدداً من خلال غضبه أو إحباطه . كما تُظهر أحلامه أيضاً بوضوح أخطاء المحلل . يمكن أن تنتزع كل ذلك من المريض ، ويمكن أن نشرحه له . بعد ذلك على المحلل أن يتابع بحثه عن علاج نافع يبدي المريض حاجة عميقة له . إنه سياق تجريبي ، مع أمل بالنجاح . وعلى المحلل أن يستمر في ذلك بكل ما يملك من لباقة ولطافة وقدرة ، دون أن يعرقل الخوف عمله هذه الطريقة من العمل يجب أن تكون صادقة وشريفة تماماً .

« لقد استمع البروفسور الى كل ذلك بصبر واسع ، وفي النهاية حذّرني من أنني على وشك الوقوع في معترك خطر ، وانني أبتعد بشكل أساسي عن العادات والتقنيات التقليدية للتحليل النفسي . إن تلبية رغبات المريض وتطلعاته ـ دون الإلتفات حتى إلى أهمية الصدق والصراحة في سلوكه ـ لا يؤدي إلا الى مزيد من تبعيته تجاه المحلل ، وهذه التبعية لا يمكن الفرار منها إلا بالانسحاب العاطفي لهذا الأخير . إن طريقتي ، قال لي البروفسور ، قد تؤدي بسهولة ، بين محللين لا خبرة لهم ، إلى مشاركة جنسية بدلاً من أن تعبر عن تضحية عائلية .

وضع هذا التحذير حداً للمقابلة . فمددت يدي مودعاً ، لكن البروفسور تركني واقفاً وغادر القاعة » .

مثال آخر على عدم تسامحه ، يمكن أن نلاحظه في موقفه إزاء أعضاء الجمعية الدولية للتحليل النفسي الذين لم يظهروا ولاء كافياً تجاه

« الحزب » . ففي الرسالة التي كتبها الى جونز (18 شباط ، فبراير - 1919) تعبير شديد التميز بهذا الشأن إذ يقول له : « إن رغبتك في تطهير الجمعية اللندنية من أتباع يونغ أمر ممتاز »(1) .

كما نصادف موقف القسوة نفسه تجاه أصدقائه الذين يختلف في الرأي معهم ، وذلك في ردة فعله عند موت الفرد آدلر . ففي جوابه الى أرنولد زويغ الذي كتب له عما أصابه من اضطراب لسبب موت آدلر ، يقول فرويد : « انني لا أفهم تعاطفك مع آدلر . فبالنسبة لفتى يهودي من فيينا ، يشهد الموت في Aberdeen* بحد ذاته على مهنة غير معروفة ، وهو في الوقت نفسه برهانٌ على ما وصل اليه . إن العالم كرّمه بحق ، بأن أسدى اليه خدمة معارضة التحليل النفسي »(2) .

رغم هذه البراهين كلها ، ينفي معجبو فرويد أي نزعة استبدادية عنده . وجونز لا يفتأ يعود اليها . فهو يقول على سبيل المثال أن الناس تتحدث « عن شخصيته الطاغوتية وعن عقيدته التسلطية ، وتدعي أنه كان يريد من تلامذته أن يتبنوا آراءه تماماً . إن هذه الاتهامات مضحكة ، ويتبين خطأها من كتاباته ، وخاصة من ذكريات الذين عملوا معه »(3) . ويقول أيضاً : « لا أستطيع أن أتخيل شخصاً قام بما قام به فرويد لكي لا يشبه الديكتاتور ، ومع ذلك فإن هذه التهمة وجهت إليه في بعض الأحيان »(4) .

---

(1) جونز . المرجع السابق . المجلد الثاني ص 254

(*) حيث توفي آدلر .

(2) جونز - المرجع السابق . المجلد الثالث ص 238 .

(3) المرجع السابق . المجلد الثاني ص 136 -137 .

(4) المرجع ص 137 .

يعبّر جونز ، في هذه التصريحات ، عن سذاجة سيكولوجية تنافي وضعه كمحلل نفساني . فهو يهمل بكل بساطة أن فرويد كان غير متسامح تجاه الذين سمحوا لأنفسهم بمناقشة أفكاره أو بانتقاده ولو قليلاً . لقد كان فرويد بالنسبة للذين يمجدونه ولا يختلفون معه أبداً ، محباً ومتسامحاً ؛ وذلك تحديداً ، كما أسلفت ، لأن فرويد كان شديد التبعية لموافقة الآخرين غير المشروطة ، ولذا كان يتصرف كأب محب نحو أبنائه المطيعين ، وكأب قاس ومستبد نحو من يجرؤ على مخالفته .

إن ساخس Sachs على الأقل كان أكثر وضوحاً من جونز . ففي حين يدعي هذا الأخير تقديم صورة موضوعية ، كما ينبغي أن يقوم به كل كاتب سيرة ، يعترف ساخس بصراحة « بنقص الموضوعية عنده ، الذي أعلنه بحرية وشجاعة . . . وفي الاجمال ، إن التمجيد ، إذا كان صادقاً وحقيقياً ، يضيف إلى وضوح الشخصية أكثر مما يضع أمامها من عقبات »[1] . ولكن إلى أي مدى كان يبلغ ارتباطه التكافلي ، ذي الطابع الديني ، بفرويد ؟ إننا نكتشف ذلك من تصريح ساخس عندما أنهى قراءة « تفسير الأحلام » . إذ يقول : « لقد وجدت الشيء الوحيد الذي يستحق الحياة بالنسبة لي : وقد اكتشفت بعد سنوات أنه كان الشيء الوحيد الذي أستطيع الحياة من خلاله »[2] . يمكن لنا ، وبسهولة ، أن نتخيل شخصاً ، يقول أنه يعيش من خلال الكتاب المقدس ، أو من خلال الفلسفة الهندية ، أو حتى من خلال فلسفة سبينوزا أو كانت . ولكن أن يعيش الانسان من خلال كتاب عن تفسير الأحلام ، فليس لذلك معنى إلا أن يكون مؤلف هذا الكتاب قد أصبح موسى ، وأن

(1) المرجع السابق . ص 8-9 .

(2) المرجع السابق . ص 3-4 .

يكون ما فيه ديناً جديداً . إن « ساخس » لم يتمرد على فرويد أبداً ، ولم ينتقده ، وذلك يبرز بوضوح مؤثر من خلال وصفه الخاص لوضعية معينة حيث قام « إرادياً وبإصرار » بما لا يرضي فرويد . « لقد كلمني عندما انتهى الأمر ، ثلاث أو أربع كلمات فقط ، وبصوت منخفض . هذه الكلمات غير الودية ، الوحيدة التي سمعتها منه في حياتي ، بقيت عميقاً في ذاكرتي . إلا أنه بعد ذلك ، نسي الأمر ولم يكن له أي تأثير على موقفه مني . وإذا كنت لا أستطيع أن أتذكره الآن سوى بشيء من الخجل ، فإنني أواسي نفسي بأنها كانت مرة وحيدة طيلة حياة استمرت ثلاث وخمسين سنة . ومرة واحدة ، ليس ذلك بالشيء الكثير »[1] .

(1)المرجع السابق ص 16 -17 .

VII ـ فرويد ، مُصلح العالم

كطفل ، كان فرويد شديد الاعجاب بـالقادة العسكـريين الكبـار . فهنيبعل البطل القرطاجي ، والجنرال اليهودي ماسينا في جيش نـابليون ، كـانا من أوائـل الأبطال الـذين أحبهم . كان شغـوفاً بحـروب نابليـون ، يلصق أسماء ماريشالاته على ظهور جنـوده الخشبية . في الـرابعة عشـر من عمره، أبدى اهتماماً شـديداً بـالحرب الفـرنسية الألمـانية . كـان يحتفظ في مكتبه بخرائط جغرافية، وأعـلام صغيرة ، وينـاقش مع شقيقـاته المسـائل الاستراتيجية .

هـذا الحماس وذلـك الاهتمام ينـطويان عـلى سمة مـزدوجة : فهـو اهتمام بالتاريخ والسياسة من جهة ، وحماس لقائد كبير يؤثر على التاريـخ ويحول مصير البشرية من جهـة ثانيـة . إن حماس فـرويد لهنيبعـل وماسينـا واهتمامه بالحرب الفرنسية الألمانية كان يتحرك من خلال انشغاله بالتـاريخ وبـالتـطور السيـاسي ـ ولم يكن تعبيـراً بسيـطاً عن رغبـة يـافـع بـالبـذات العسكرية والمعـارك ـ وهذا مـا يؤكده التـطور اللاحق لاهتمـامات فـرويد السيـاسية . فعنـدما بلغ السـابعة عشـر تقريبـاً ، بدأ جـدّياً ، في التفكـير بدراسة الحقوق . كان ذلك عصر « الوزارة البورجوازية » .

« قبـل أيـام ، أحضـر والـدي معـه صـور الجـامعيـين Herbst ، Giskra ، Unger ، Berger ، وغيـرهم . وأنرنـا المنزل عـلى شـرفهم .

كـان بينهم يهوداً ؛ هكـذا شعر كـل طالب يهـودي بإمكـانيـة وصـولـه الى الوزارة . إن تلك الانطباعات في ذلك الوقت هي التي وجهتني في البـداية نحو الحقوق . ولم يكن اختياري للطب إلا في اللحظة الأخيرة »(1) .

إن رغبة فرويد ، في السابعة عشر من العمـر ، في أن يصبح قـائداً سياسياً ، تؤكدها صداقته مع « هنريش براون » رفيقه في المدرسة ، الذي أصبح فيما بعد ، أحد الاشتراكيين الألمـان البارزين . وقـد وصف فرويـد نفسـه هذه الصـداقة ، بعـد عدة سنـوات ، في رسـالـة وجههـا إلى أرملة بـراون « يقول فيها :

« في المـدرسة ، كنـا دائـماً معـاً . . . كنت أمضي وإيـاه السـاعـات الطوال بعد الخروج من المدرسة . لم تكن أهدافنـا ، ولا سبل طمـوحاتنـا واضحـة بالنسبـة لنا. منـذ ذلك الـوقت ، اعتقدت أن تلك الأهـداف لها طابع سلبي أسـاسـاً . لكن كـان هناك شيئـاً أكيداً : أنني سـأعمل معـه ، وانني لن أتخلى مطلقاً عن حزبـه . وتحت تأثيـره قررت في ذلـك الوقت أن أدرس الحقوق في الجامعة »(2) .

إذا انتبهنـا إلى اهتمام فـرويد بـالاشتراكيـة في نهاية مـراهقته ، فلن يكون مدهشاً أن نلاحظ عنده تماهياً لا واعياً مع فيكتور آدلر زعيم الحزب الاشتـراكي الديمقـراطي النمسـاوي المحبـوب جـداً . وقـد لفتت السيـدة Bernfeld الانتباه الى هذه النقطة من خلال تحليلها للظروف التي استأجـر

---

(1) تفسير الأحلام . المرجع السابق . ص 171 .

(2) رسـالـة الى Julie Braun-Vogelstern . نُـشـرت في Journal of the American psychoanalytic المجلد الـرابـع . اوكـتـوبـر 1965 . ص 64(1) رسـالـة الى Julie Braun-Vogelstern . نُـشـرت في Journal of the American Psychoanalytic association المجلد الرابع . اوكتوبر 1965 . ص 644 .

فيها فرويد مسكنه في Berggasse . فقد عاش هذا الأخير حتى عـام 1891 مع أسرته في Schotlenring ؛ ثم ما لبثـوا إثر انتـظارهم لمولـود جديـد أن قرروا الانتقال إلى مسكن آخر .

« لقد تم تحضير الانتقال بعناية تامة من جانب البروفسور وزوجته . فقـد وضعا لائحـة بأهم حـاجاتهـما . وأمضينـا وقتـاً ملحـوظـاً في تصميم مشاريع مسكنهما الجديد . . . بعد ظهر أحد الأيام ، خرج فـرويـد بعـد أن انتهى من زيـاراتـه ليتنـزه . وإثر استمتـاعه بمـا شاهـد من حدائق ، وجد نفسه أمام منزل عليه لوحة « للايجار » . فشعر فجأة بميل شديد نحو المنزل . دخله ، تفحص ما فيه ، ووجد أنـه يلائم مـا يسعى إليه تمـاماً ، فوقّـع العقد مبـاشرة . يقـع المنزل في الـرقم 19 من الـ Berggasse . عاد فرويد وأبلغ زوجته أنه عثر على المنزل الملائم ، واصطحبها في المساء نفسه للتعرف عليه . لاحظت زوجة فـرويد مـا في المنزل من ثغـرات ، إلا أنها وبحدس مميز ، أدركت أن زوجهـا قد اختـار هذا المسكن ولن يعجبـه أي مسكن آخر . فأبدت إعجابها به وبأنهما سيعتادان عليه . وفي الواقع اعتاد فرويد وزوجته على هذا المنزل القاتم وغير المريح وعاشا فيه سبعة وأربعين سنة »[1] .

تطرح السيدة Bernfeld التساؤ ل التالي : « ما الذي دفـع بشخص متبصر وشديد العناية مثل فرويد ، للإقدام على عمل فوري انفعالي دفعـه للبقاء مثل هذه السنين في ذلك المنزل ؟ »[2] وفي إجابتها ، الواقعية جداً ، على هذا التساؤ ل تلاحظ السيدة Bernfeld أن فيكتور آدلـر ، الاشتراكي

(1) المرجع السابق ص 650 .
(2) المرجع السابق ص 650 .

البارز الذي أصبح زعيم الاشتراكية النمساوية فيما بعد ، عاش في المنزل نفسه ، وأن فرويد قد زاره سابقاً في هذا المنزل ، وكان شديد الاعجاب بالرجل . كما تفسر الكاتبة أيضاً بعض الأخطاء المتعلقة بالمنزل بما هي دلالات معبرة عن أهمية العلاقة بين المنزل وبين آدلر . وبالرغم من موافقتي التامة على ما توحي به السيدة Bernfeld ، فإنني أعتقد أنها تطرح جانباً نقطة مهمة في الإطار الذي يشغلنا وهو : مُثل فرويد الانسانية ورغبته الذاتية في أن يصبح زعيماً سياسياً كبيراً .

هناك زعيم اشتراكي آخر من المفترض أن فرويد قد تماهى به . ويبدو هذا الأمر من الجملة التي صدّر بها كتابه « تفسير الأحلام » وهي الجملة نفسها التي استخدمها القائد الاشتراكي الألماني « لاسال » في كتابه « حرب ايطاليا ومهمة بروسيا » (1859) *

ويبدو أننا نستطيع العثور على برهان ذلك في رسالة وجهها فرويد إلى فليس (17 تموز ـ يوليو ـ 1899) يكرر فيها تلك العبارة « للاسال » . ومن المثير أن نلاحظ أن فرويد لا يشير الى الكتاب الذي استخدم فيه لاسال هذه العبارة . أن هذا التستر على مصدر تلك الجملة يدلنا على الطابع اللاواعي لتماهيه مع القائد الاشتراكي .

وقبل أن أغوص أكثر في تفاصيل تماهيات أخرى ، أود الإشارة الى تفاصيل إضافية تبين لنا مدى عمق اهتمام فرويد لا بالطب ، بل بالفلسفة والسياسة وعلم الأخلاق . يذكر جونز أن فرويد كان عام 1910 « يتحسر على ذلك اليوم الذي يقلع فيه عن ممارسة الطب ليتفرغ لدراسة مسائل الحضارة والتاريخ ، وليدرس في نهاية المطاف ، كيف وصل الإنسان الى ما

(*) « إذا لم أستطع ثني السماوات فسأزلزل جهنم » .

هـو عليه الآن »[1] . أو كـما يقول فـرويد نفسـه : « شعـرت في صبـاي ، بحـاجة لا تقـاوم لفهم أسرار العـالم الـذي نعيش فيـه ، وحتى بـالحـاجـة للمساهمة في حلها »[2] .

وامتثالاً لهذا الميل الانساني والسياسي ، يقرر فـرويد الالتحـاق عام 1910 « بأخوية عالمية للأخلاق والثقافـة » التي أسسها الصيـدلي Knapp ، ويرأسها Forel . وقد أشار فرويد عـلى المؤسس بمناقشـة يونـغ وطلب من هذا الأخير رأيه حول فائدة الالتحاق بهذه الحركة ، قائلاً : « ان ما يجذبني اليها ، هو الطابع العملي ، والعدواني ، والواقعي أيضاً لبرنامجهـا : ضرورة النضال المباشـر ضد سلطة الـدولة والكنيسـة في الحالات التي يقتـرف فيها هؤلاء ظلماً ظـاهراً »[3] . إلا أن شيئـاً لم يتحقق من هذا المشـروع ، وكـما يقول جونز « سرعان ما استبدل بتشكيل جمعية تحليلية صافية »[4] .

إن فكرة فرويد في الالتحاق بالأخوية العالميـة تبين لنـا إلى أي مدى كـانت مثله القديمـة في الاصلاح التقـدمي للعـالم لا تـزال حيـة حتى عـام 1910 ، ولكنه عندما نظم الحركة التحليلية ، تلاشت اهتمـاماتـه الظاهـرة بالثقافة والأخلاق . . . وتحـولت ، كما سـأبين فيـما يلي ، الى تمـركز حـول أهداف هذه الحركة فقط . لقـد اعتبر فـرويد نفسـه زعيم هذه الحـركة ، وبهذا الدور ، تماهى بلا وعي منه مع بطله السابق هنيبعل ، ومع مـوسى القائد الكبير لاجداده .

« كان هنيبعل ـ يقول فرويد ـ بطلي المفضـل في سنوات الـدراسة .

---

(1) جونز . المرجع السابق ـ المجلد الأول ص 30 .

(2) المرجع نفسه ص 31 .

(3) المرجع نفسه المجلد الثاني ص 71 .

(4) « ولادة التحليل النفسي » PUF باريس 1965 ـ ص 209 .

عندما درسنا الحروب القرطاجية ، لم أتعاطف ، كالكثيرين من الفتيان أمثالي في ذلك السن ، مع الرومان ، بل مع القرطاجيين . ولكن في الصفوف العليا عندما أدركت انعكاسات عرقي الأجنبي عليّ ، وعندما كانت اتجاهات رفاقي المعادية للسامية تدفعني لاتخاذ موقف واضح ، تعاظمت في نفسي فكرة هذا المحارب السامي الكبير . . . وهكذا أصبحت الرغبة في الذهاب الى روما ، في حياة الحلم ، قناعاً ورمزاً للكثير من الرغبات الأخرى ، التي ينبغي من أجل تحقيقها العمل بثبات وتصميم قرطاجي ، والتي يبدو انجازها قليل التحقق نظراً لما آلت اليه رغبة هنيبعل »[1] .

إن تماهي فرويد بهنيبعل استمر الى ما بعد فترة المراهقة . فقد شعر ، في سن النضج ، برغبة جامحة في الذهاب الى روما ، وقد حلّل طبيعة هذه الرغبة اللاعقلانية في رسالته الى فليس في (3 ديسمبر - كانون الأول 1897) : « بين مزدوجين ، ان حنيني الى روما له طابع عصابي عميق . إنه يرتبط بحبي منذ سن الليسيه للبطل السامي هنيبعل ، وفي الواقع ، هذه السنة أيضاً ، لم أتمكن مثله ، من الذهاب الى بحيرة Transimène في روما »[2] . وقد تجنب فرويد ، فعلياً ، خلال سنوات ، أثناء وجوده في إيطاليا ، الذهاب الى روما .

وفي إحدى زياراته إلى إيطاليا ، وصل فرويد إلى بحيرة Transimène ، وبعد أن شاهد الـ Tibre عاد حزيناً ، مع أنه كان على بعد ثمانين كيلومتراً فقط من روما[3] . ثم قرر العودة إلى إيطاليا في السنة

---

(1) تفسير الأحلام . المرجع السابق ص 174 -175 .

(2) ولادة التحليل النفسي - المرجع السابق . ص 209 .

(3) تفسير الأحلام . المرجع السابق ص 174 .

اللاحقة ، ولكن ليصل الى ضواحي روما مرة أخرى . ولم يتخذ قراره بالذهاب إليها إلا في عام 1901 .

ما هو سبب هذا التردد الغريب لزيارة روما التي يشعر بالحنين إليها منذ سنوات طويلة ؟ يعتقد فرويد « ان أسباباً صحية كانت تمنعه خلال السفر من الذهاب الى روما »(1) . إلا أنه يكتب عام 1909 « ان الأمر كان بحاجة لقليل من الشجاعة » لتحقيق رغبته ، ومنذ ذلك الحين لم يكفّ عن الحج إلى روما . من البديهي إذن، أن الأسباب الصحية ليست سوى مبررات عقلانية . فما الذي كان يمنع فرويد حقاً من الذهاب الى روما ؟ إن السبب الوحيد المقبول لا يمكن اكتشافه إلا في لا وعيه .

ظاهرياً ، تمثل زيارة روما في لا وعي فرويد ، افتتاح المدينة المعادية ، وافتتاح العالم . كانت روما هدفاً لهنيبعل ومن ثم لنابليون ، كما كانت عاصمة الكاثوليكية التي يمقتها فرويد مقتاً شديداً . وفي تماهيه بهنيبعل لا يستطيع فرويد أن يذهب أكثر مما وصل إليه بطله ، إلى أن توصل ذات يوم الى التجرؤ على تلك الخطوة الحاسمة ودخل الى روما : ومن البديهي أن يكون ذلك انتصاراً رمزياً وتأكيداً لذاته بعد ظهور نتاجه الشهير « تفسير الأحلام » .

هناك تماه آخر ساهم بدوره في منع فرويد من الوصول الى روما طيلة سنوات : تماهيه مع موسى . فقد حلم « . . . أنهم يقتادونه الى تلة ويدلونه على روما التي يغطي نصفها الضباب ، والتي تبدو شديدة البعد الى درجة أنني دهشت لرؤيتها بهذا الوضوح » . . . « وهنا نتعرف بسهولة على شعار : « رؤية الأرض الموعودة من بعيد »(2) .

(1) المرجع نفسه . ص 172 .

(2) تفسير الأحلام ـ المرجع السابق ص 172 .

لقد أحس فرويد نفسه بهذا التماهي مع موسى ، بمزيج من الوعي واللاوعي . فقد عبر عن فكرته الواعية في رسالتين الى يونغ (28 شباط - فبراير - 1908 ، و17 كانون الثاني - يناير - 1909) . وكما أشرنا ، كان يؤكد أن يونغ وأوتو هما الفِكران الأصليان الوحيدان بين مؤيديه ، كما كتب أن على يونغ أن يصبح Josué يسوع الذي سينفذ الى الأرض المقدسة للتحليل النفسي التي لم يتمكن فرويد ، على غرار موسى ، إلا أن ينظر إليها من بعيد[1] . ويضيف جونز « ان هذه الملاحظة مهمة ، لأنها تبين بوضوح أن فرويد كان يتماهى مع موسى ، وهذا ما أصبح في السنوات اللاحقة أكثر بداهة » .

أما تماهي فرويد اللاوعي مع موسى ، فنكتشفه في اثنين من أعماله « موسى مايكل انج (1914) وفي كتابه الأخير « موسى والتوحيد » . أما « موسى مايكل انج » فيعتبر حالة وحيدة في عمل فرويد باعتباره المقال الوحيد الذي نشره باسم مستعار في Imago . (المجلد الثالث ، 1914) . وقد تصدرت المقال « ملاحظة من الناشرين » هي التالية :

«رغم أن المقال لا تتوافر فيه الشروط التامة التي تسمح بقبوله في هذه الصحيفة ، فقد ارتأى الناشرون مع ذلك نشره لأن الكاتب معروف منهم شخصياً ، وهو ينتمي الى الحلقات التحليلية النفسية ، وفي طريقته في التفكير بعض التشابه مع منهجية التحليل النفسي » .

لماذا كتب فرويد ذلك المقال الذي لم يستخدم فيه المنهجية التحليلية ؟ ولماذا اضطر لتوقيعه باسم مستعار بينما كان من الممكن بكل بساطة نشر المقال والتنويه بأن فرويد هو كاتبه ، وأنه سينشر رغم أنه ليس

---

(1) جونز - المرجع السابق . المجلد الثاني . ص 35 .

مقالاً تحليلياً صرفاً ؟ ان الاجابة على هذين التساؤلين يجب أن تكمن فيما تمثله شخصية موسى من أهمية انفعالية كبيرة بالسنة لفرويد ، لكنها أهمية لا يعترف بها على المستوى الواعي ، بل يواجهها بمقاومة ملحوظة .

ما هي النتيجة الرئيسة للفحص الدقيق الذي قام به فرويد لتمثال مايكل انج ؟ انه يعتبر خلافاً لما افترضه معظم المراقبين ، ان هذا التمثال لا يمثل موسى ، قبل أن يكسر ألواح الشريعة في فورة من الغضب ، بل على العكس من ذلك ، يحاول فرويد بطريقة فذة وتطبيقية أن يبرهن أن عمل مايكل انج هذا قد غيّر شخصية موسى ، « فموسى كإنسان ، كان وفقاً لشهادات التراث ، عرضة لانفعالات غضبية حادة . . . لكن مايكل انج وضع على قبر البابا موسى آخر يتفوق على موسى التاريخ أو التراث » . وهكذا ، يرى فرويد ، أن مايكل انج قد بدل موضوعة الألواح المكسورة ، ولم يكسر موسى الألواح ، بل ان غضبه يهدأ شفقة منه ورحمة على الشعب . وهو بهذه الطريقة أضاف الى شخصية موسى شيئاً جديداً وميزة إنسانية فائقة ؛ « الى درجة أن بنية القوة العضلية للشخص ليست سوى وسيلة مادية في خدمة الانتصار النفسي الذي يستحقه الانسان : التفوق على هواه الذاتي من أجل مهمة نذر نفسه لأجلها »(1) . إذا أخذنابعين الاعتبار أن فرويد كتب ذلك في فترة انشقاق يونغ ، وإذا تذكرنا أن فرويد يعتبر نفسه بقدرته على السيطرة على أهوائه ، جزءاً من نخبة مميزة ، لا يبقى أمامنا مجال للشك بأن اهتمام فرويد بتفسير منحوتة مايكل ـ انج ينبع من رؤ يته لنفسه في قسمات موسى الذي لا يفهمه شعبه والذي يقدر رغم ذلك على كظم غضبه ومتابعة

---

(1) نشر مقال « موسى مايكل انج » في « محاولات في التحليل النفسي التطبيقي » ص 36 . منشورات غاليمار .

عمله . هذه الفرضية يؤكدها رد فعل فرويد إزاء جهود كل من جونز وفرنيزي لاقناعه بنشر المقال موقعاً باسمه : «ان أسيء الى موسى ، يقول فرويد ، بأن الصق به اسمي ؟ إن الأمر ليس سوى دعابة ، ولكنها قد لا تكون سيئة »[1] . إن الإساءة الى موسى ، إذا وقع فرويد مقالاً باسمه ، قد تبدو لأول وهلة ليست بذي بال . لكن هذه الملاحظة تأخذ أهميتها إذا اعتبرناها انعكاساً قلقاً لتماهيه اللاواعي مع موسى ، الذي كان أساس المقال برمته . وتتبين أهمية موضوع موسى بالنسبة لفرويد ، من خلال الوقت الطويل الذي كرسه في سنواته الأخيرة لشخصية موسى - ففي زمن الأحكام الهتلرية (نشر الجزءان الأول والثاني من « موسى والتوحيد » عام 1937 ، والثالث عام 1939) ، حاول فرويد أن يبرهن أن موسى لم يكن يهودياً ، بل كان مصرياً . ما الذي دفع فرويد لحرمان اليهود من أعظم أبطالهم في الوقت الذي يحاول فيه بربري قوي إبادتهم ؟ ما الذي دفع فرويد لتأليف كتاب بعيد تماماً عن ميدانه ، يحاول أن يبرهن فيه على شيء ما من خلال التماثلات والاستدلال الضعيف ؟ هناك إجابة لا بد مؤكدة : وهي أن دافعه لتأليف الكتاب يكمن في نفس الافتتان والتماهي مع موسى اللذين كانا خلف مقاله عن مايكل انج قبل أكثر من عشرين سنة خلت . ويبدو أن الأمر هذه المرة ، ليس مجرد « نكتة » ، وان فرويد لم يخش الإساءة الى موسى بأن يضع اسمه الى جانبه . ولكنه إذا لم يفعل شيئاً ضد موسى ، فقد فعل شيئاً ما ضد اليهود : فقد حرمهم لا من بطلهم فحسب، بل من انتسابهم لأصول فكرة التوحيد[2] . فلو كان عمل فرويد من خلال ميدانه ، أو لو كانت

(1) جونز - المرجع السابق . المجلد الثاني . ص 389 .

(2) يشير البروفسور ارنست سيمون في مقاله « سيجموند فرويد ، اليهودي » الى أهمية كلام =

براهينه صحيحة ، لم يكن هناك أي مبرر لأسئلة نفسية حول الأسباب التي دفعته لنشر « موسى والتوحيد » . وبما أن الأمر لم يكن كذلك ، علينا الافتراض بأن اهتمام فرويد بموسى ينبع من تماهيه العميق اللاوعي به ، وعلى غرار قائد اليهود العظيم ، قاد فرويد الشعب الى عتبة الأرض المقدسة ، دون أن يدخلها بنفسه ، لقد اختبر جحودهم واحتقارهم ، دون أن يتخلى عن مهمته .

هناك تماه ثالث ، أقل أهمية من تماهيه مع هنيبعل وموسى ، ولكن لا بد من الإشارة إليه : وهو تماهيه مع كريستوف كولومبوس . فبعد أن ترك يونغ حركة التحليل النفسي ، لاحظ فرويد : « هل نعلم اليوم ، مع من أبحر كولومبوس عندما اكتشف أميركا ؟ » [1] فيما بعد ، وفي نهاية حياته ، يبين لنا أحد أحلامه مدى عمق تماهيه مع بطل منتصر . عندما كان فرويد في القطار الذي يقله من باريس الى لندن ، هارباً من فيينا ، حلم أنه توقف في بيفنسي Pevensey ، حيث نزل غليوم Guillaume الفاتح عام 1066 [2] . فيا له من تعبير مفعم بالغرور والثقة بالنفس لرجل لا يهزمه شيء ! في نهاية حياته ، يصل الى انكلترا ، عجوز ومريض ولاجىء ، لكن لا وعيه يصور له قدومه الى هذه البلاد قدوم البطل والفاتح معاً ! وإذا لاحظنا بداهة استمرارية تماهي فرويد مع القادة الكبار ، من ماريشالات نابليون الى هنيبعل وموسى ، نتعجب من جونز الذي يفترض أن هذه التماهيات قد اختفت تماماً بعد سن المراهقة : « تجدر الإشارة ، يقول جونز ، إلى التغير الخارق الذي أصابه في حوالي

= فرويد (في محاولته الثالثة عن موسى) عن إمكانية مجيء التوحيد الى مصر من الشرق الأوسط الأدنى أو الأقصى ، أو حتى من فلسطين .

(1) جونز ـ المرجع السابق . المجلد الثاني ص 127 .

(2) المرجع السابق . المجلد الثالث . ص 260 .

السادسة عشر أو السابعة عشر من عمره . لقد ولى زمن الطفل المشاكس ، الذي يلاكم رفاقه ، كما ولى زمن الفتى الشغوف بالأمور العسكرية ، وزمن المراهق الذي يحلم بأن يصبح رئيساً للوزراء وحاكماً للأمة . أيجب أن نرد هذا التبدل الى يومين أمضاهما الى جانب فتاة ريفية ؟ »[1] .

كلا ، لأن هذا اللقاء القصير في الحقيقة ، (افتتان فرويد الشاب بفتاة مراهقة) لم يكن حاسماً . كما لم يكن هناك أي شيء آخر له هذا الطابع ، لأن جونز يرتكب خطأ بافتراضه ان كل تلك الهوامات وكل تلك الرغبات قد اختفت . فهي قد اتخذت فقط أشكالاً جديدة ، وتحولت جزئياً الى أقل شعورية . لقد تحول الفتى الذي يطمح لأن يكون وزيراً الى رجل يتوق لأن يكون مثيلاً لموسى ، يجلب للانسانية معرفة جديدة ، تكون بمثابة الكلمة النهائية التي يكوّنها الانسان عن نفسه وعن العالم . لقد سقطت القومية والاشتراكية والدين كدليل لحياة أفضل . ان الفهم الكامل لعقل الانسان هو الذي سيبيّن لنا لا عقلانية هذه الاجابات جميعاً ، وهو الذي سيقود الانسان ، الى المدى المقدر له : إلى تقدير معتدل ، شكي وعقلاني لماضيه وحاضره ، والى تقبل الطبيعة المأساوية لوجوده أصلاً .

لقد اعتبر فرويد نفسه زعيم هذه الثورة العقلية التي قطعت المرحلة الأخيرة التي تستطيع العقلانية انجازها . فإذا أدركنا فقط هذا النزوع عند فرويد لحمل رسالة جديدة إلى الانسانية ، لا رسالة سعيدة ، بل رسالة واقعية ، نستطيع أن نفهم حركة التحليل النفسي .

أي ظاهرة غريبة هي حركة التحليل النفسي هذه ! إن التحليل

(1) المرجع نفسه المجلد الأول . ص 59 .

النفسي طريقة للعلاج ، علاج العصاب ؛ وهو في الوقت نفسه نظرية سيكولوجية ، ونظرية عامة للطبيعة الانسانية ، وخاصة لوجود اللاوعي وتعبيراته في الأحلام ، وفي الاعراض المرضية ، وفي الطباع ، وفي كل الانتاجات الرمزية . فهل هناك حالة أخرى للعلاج ، أو لنظرية علمية ، تتحول الى حركة تقودها لجنة مركزية سرية ، تلجأ إلى « تطهيرات » في صفوف أعضائها المنحرفين ، ولها تنظيمات محلية في خدمة التنظيم العالمي ؟

لم يحدث أبداً ، في الميدان الطبي ، أن تحول العلاج الى حركة مماثلة . أما فيما يتعلق بالتحليل النفسي كنظرية ، فإن الداروينية هي أقرب شيء إليه ، باعتبارها أيضاً نظرية ثورية تلقي الضوء على تاريخ الانسان وتميل الى تغيير صورة العالم أكثر جذرية من أي نظرية أخرى في القرن التاسع عشر . ومع ذلك ، ليس هناك « حركة » داروينية ، وليس هناك نزعة إدارية تسيطر على تلك الحركة ، وليس فيها تطهيرات تقرر من يكون داروينياً ومن لا يمتلك هذا الامتياز .

لماذا إذن كان لحركة التحليل النفسي هذا الدور الفريد ؟ إن الإجابة تكمن جزئياً في تحليلنا السابق لشخصية فرويد . لقد كان ولا شك ، عالماً كبيراً ، لكنه مثل ماركس ، الذي كان سوسيولوجياً وعالماً اقتصادياً كبيراً ، كان لفرويد هدفاً آخر . هدف لم يكن شخص مثل داروين يسعى اليه . أراد تغيير العالم تحت قناع المعالِج والعالم ، كان فرويد واحداً من كبار مصلحي العالم في بداية القرن العشرين .

VIII ـ الطابع شبه السياسي لحركة التحليل النفسي

سأحاول في الصفحات التالية أن أبين الطابع الخاص جداً ، شبه السياسي لحركة التحليل النفسي . ولهذا السبب سيصعب علي أن أجد مقدمة لهذا الموضوع أفضل من محتويات القسم الأول من المجلد الثاني لسيرة فرويد التي كتبها أرنست جونز . وهي تتضمن العناوين التالية : فرويد يخرج من العزلة (1906 -1901) ؛ بداية شهرته الدولية (1906- 1909) ؛ الجمعية الدولية للتحليل النفسي ؛ الخصوم ؛ الانشقاقات (1911 -1914) ، اللجنة ؛ سنوات الحرب (1914 -1919) .

إن من يقرأ هذه العناوين دون أي معلومات مسبقة ، لن يشك مطلقاً في أن الكتاب يتناول سيرة حركة سياسية أو دينية ، في نموها وانشقاقاتها ، أما أن يكون الأمر تاريخ طريقة علاجية أو نظرية نفسية ، فذلك سيكون مثار دهشة كبيرة عند هذا القارىء . مع ذلك ، فإن فكرة حركة تغزو العالم كانت موجودة منذ سنوات التحليل النفسي الأولى . فقبل 1910 وضع فرويد اكتشافاته الأكثر أساسية وعرضها في العديد من الكتب والمقالات أمام مجموعة صغيرة من الأطباء وعلماء النفس في فيينا . ولم تكن نشاطاته ، حتى تلك الفترة ، تختلف عن نشاطات أي عالم آخر . لكن هذا النوع من النشاط لم يكن يرضي فرويد . فبين 1910 و1914 ـ على حد قول جونز ـ « أعلن عما سمي حركة التحليل النفسي، وهي

تسمية غير موفقة ، شاع استخدامها لدى مناصريها وأعدائها على حد سواء » .

« إن الرغبة في نجاح مضطرد ، كان يعوقه ، بالنسبة لفرويد ، تلك الانشقاقات الخطيرة في صفوف أفضل أتباعه . . . كان فرويد شديد الاضطراب والحيرة أمام المشاكل المستعصية التي كان عليه أن يجد لها حلولاً . لكننا ، سنكتفي بالجانب الأكثر أهمية من الموضوع ، وهو الانتشار التدريجي ، للأفكار الجديدة ، التي كانت تعني ، حتماً ، الشيء الكثير لفرويد »(1) .

لقد سبق وذكرت أن فرويد ، قبل وقت قصير من تأسيس الحركة ، كتب الى يونغ يقول : إنه يفكر في جمع مؤيديه في مجموعة أكبر تعمل من أجل هدف عملي »(2) . لقد فكر أن « رابطة الأخوة الدولية للأخلاق والثقافة » هي الاطار الذي يمكن أن يجمعه مع مؤيديه . لكن هذه الفكرة سرعان ما استبدلت بفكرة « الأخوة الدولية للتحليل النفسي » .

لقد تأسست هذه الجمعية بروح تختلف تماماً عما يسود غالباً في جمعية علمية . فقد نُظمت وفقاً لمعايير ديكتاتورية . كتب فرنزي قبل المؤتمر التأسيسي الى فرويد : « ان المفاهيم التحليلية النفسية لا تؤدي الى مساواة ديمقراطية : ينبغي وجود نخبة من النوع الذي حدده أفلاطون للفلاسفة » (رسالة الى فرويد بتاريخ 5شباط ـ فبراير ـ 1910) . وقد رد فرويد بعد ثلاثة أيام بأن الفكرة نفسها قد خطرت له من قبل(3) . ثم خطا فرنيزي خطوة أخرى في تطبيق هذا المبدأ العام : فبعد اقتراحه بتشكيل جمعية

---

(1) جونز . المرجع السابق . المجلد II . ص 70 .

(2) المرجع السابق ص 70 .

(3) ذكر جونز الرسالتين في المجلد الثاني . ص 71 .

دولية ، لها فروع في بلاد عديدة ، أعلن أنه من الضروري أن تخضع جميع الأبحاث أو المحاضرات التي يقدمها أي محلل لموافقة الرئيس(1) . وبالرغم من صعوبة الموافقة على اقتراح بهذا التطرف ، فإنه يعبر عن روح الحركة التي خلقها فرويد مع فرنزي منذ البداية .

كان للمؤتمر الثاني للتحليل النفسي كل مظاهر المؤتمر السياسي : «فالنقاش الذي أعقب خطاب فرنزي » يقول جونز ، « كان عاصفاً الى درجة كان لا بد معها من تأجيله الى اليوم التالي »(2) . وقد ازدادت الأمور سوءاً عندما جرى اقتراح بتعيين الرئيس والسكرتير من المحللين السويسريين ، مما أثار حفيظة المحللين في فيينا الذين اعتبروا ذلك تجاهلاً لخدماتهم الطويلة والمتفانية .

« لقد أدرك فرويد فائدة إنجاز أعمال التحليل النفسي على قاعدة أكثر اتساعاً من تلك التي يقوم بها المحللون النمساويون اليهود . لذلك لا بد من إقناع زملائه من فيينا ، الذين اجتمع العديد منهم في إحدى غرف فندق « شتيكل » للاحتجاج . فتوجه فرويد اليهم متوسلاً سبيل اقناعهم . فشدد على العداوة العنيفة التي تحاصرهم في فيينا ، وعلى ضرورة مواجهتها عبر دعم خارجي . ثم ، وبحركة مسرحية ، ألقى معطفه قائلاً : « إن أعدائي سيسرون لرؤيتي أموت جوعاً ، وسينزعون عني حتى ملابسي »(3) .

إذا وضعنا جانباً عقدة الجوع التي سبق وتحدثت عنها ، فإننا نلاحظ هنا الحركة الدرامية والهستيرية نوعاً ما ، للقائد السياسي الذي يريد إرغام

(1) المرجع السابق . ص 72 .
(2) المرجع السابق ص 72 .
(3) المرجع السابق ص 73 .

أنصاره على قبول فكرة أن يكون التحليل النفسي حركة عالمية ، وبالتالي ضرورة نقل قيادته من أيدي يهود فيينا إلى أيدي المسيحيين السويسريين . ووفقاً لذلك ، سيصبح يونغ ، القديس بول ، للدين الجديد . لكن فرويد اتخذ أيضاً خطوات سياسية « لتهدئة زعيمي التمرد ، فأعلن استقالته وتعيين آدلر مكانه . ووافق على تأسيس مجلة شهرية جديدة Zen-tralblatt für psychoanalyse يرأسها أدلر وشيتكل معاً، لمواجهة رئاسة يونغ لمجلة Jahbuch . فساد الهدوء إثر ذلك . وتولى فرويد رئاسة المجلة الجديدة وعين يونغ رئيساً للجمعية .

يمكن لنا بسهولة ، من خلال هذا الوصف ، أن نستنتج البواعث العميقة لفرويد وفرنزي والآخرين . لقد عبّروا عن حماس أولئك الذين يتزعمون حركات شبه دينية ، لهم مصطلحاتهم ، اجتماعاتهم السرية ، يهاجمون ويهادنون : إنهم لا يملكون سمة العلماء الذين يعيشون هاجس مناقشة نظرياتهم . إننا نجد فكراً سياسياً مماثلاً في علاقات فرويد مع بلولر الطبيب النفسي الشهير فيما بعد : وفي نهاية السنة نفسها ، كتب فرويد الى فيستر Pfister : « أجد مشقة كبيرة مع بلولر . لا أستطيع القول أنني أريده بأي ثمن ، لأن يونغ أكثر قرباً منا ، لكنني على استعداد لبذل ما بوسعي من أجل بلولر ، شرط ألا يسيء ذلك الى قضيتنا . ولكن للأسف ليس هناك أمل كبير »[1] .

وبعد السنوات الأولى من الوحدة ، بدأ الانقسام يدب في صفوف الحركة . ظاهراً ، كانت هذه الخلافات ذات أسباب نظرية . ولكنها لو كانت كذلك فقط ، لما اتخذت تلك الحدة التي رافقت كل تلك الأحداث . كانت الانشقاقات ، وما أحاط بها من صخب ، ترتبط الى

---

(1) جونز ـ المرجع السابق . ص 76 .

حد كبير برغبة المنشقين في أن يصبحوا زعماء طوائف جديدة ، كما ترتبط بالروح السياسة والتزمت اللذين عرف بهما فرويد وأتباعه . إلا أنها لم تكن وليدة كل ذلك فقط ، بل نتيجة بنية الحركة نفسها . ففي حركة تعتمد تنظيماً هرمياً ، تهدف الى اقتحام العالم بفكرها ، تصبح تلك الوسائل منطقية . إنها الوسائل نفسها التي تشيع في حركات أخرى عدوانية ، سياسية أو دينية ، تتمركز حول عقيدة وتأليه زعيم .

أدت القطيعة مع يونغ ، وهي أكثر انشقاق خطورة سياسياً ، وأكثره ضرراً شخصياً لفرويد من أي انشقاق آخر ، الى تضييق جديد حول الحركة عبر تشكيل لجنة دولية سرية مؤلفة من سبعة أشخاص (بينهم فرويد نفسه) للسهر والتأثير على مسيرة الحركة .

إن فكرة هذه الجمعية تكشف المنحى السياسي الذي تبنته الحركة . لقد خطرت الفكرة لفرنزي . ففي عام 1912 بعد انسحاب كل من آدلر وشتيكل ، وبعد أن اعترف فرويد في تموز ـ يوليو ـ من السنة نفسها بتدهور علاقاته مع يونغ ، أدلى فرنيزي لجونز بالملاحظة التالية : « إن الخطة المثالية تفرض أن نجعل في عدة مراكز أو عدة دول عدداً من الأشخاص الذين حللهم فرويد نفسه تحليلاً تاماً . ولكن بدا لي استحالة ذلك ، فاقترحت (جونز) تشكيل مجموعة صغيرة من المحللين الموثوق بهم ، تكون كنوع من « الحرس القديم » حول فرويد . إن ذلك يعطيه الطمأنينة التي لا يوفرها له إلا مجموعة ثابتة من الأصدقاء الأقوياء ، كما يؤمن له القوة اللازمة في مواجهة الانشقاقات اللاحقة »(1) . وقد لاقى هذا الاقتراح موافقة حميمة من رانك وابراهام . ومما تجدر ملاحظته مجدداً ، أنه في الوقت الذي كانت تناقش فيه هذه الفكرة ، سأل فرنزي

(1) المرجع السابق ص 162 .

رانك عما إذا كان سيظل وفياً للحركة ، كما كتب الى فرويد بشأن جونـز : « عليك أن تُبقي جونز تحت المراقبـة الدائمـة ، وأن تقطع عليـه أي سبيل للتراجع »(1) .

تحمس فرويد كثيراً لفكرة جونز ، ورد عليه مباشرة :

« إن ما أسَر خيالي في الحال ، ما ذكرتـه بصدد مجلس سـري مؤلف من خيرة أصدقـائنا وأوثقهـم للعنـايـة بـالتطور الـلاحق للتحليل النفسي والـدفاع عن القضيـة ضد بعض الأشخـاص والأحداث عنـدمـا لا أعـود موجوداً . . انني أستطيع القول أنه يسهل علي الحياة والموت إذا علمت أن مثل هذه الجمعيـة قد أبصـرت النور للسهـر على عمـلي . ولكن قبل كـل شيء : يجب أن تحافظ هذه اللجنة على سرية وجودها وأعمالها . . . ومهما حمل المستقبل الينا ، فإن القائد القادم لحركة التحليل النفسي لن يكون إلا من هذه الدائرة الصغيرة التي لا تزال تتمتع بثقتي رغم احبـاطـاتي الأخيرة مع الرجال »(2) .

بعد سنة ، اجتمعت اللجنة لأول مرة بكـامل أعضـائها : جـونز ، فرنـزي ابراهام ، رانك ، وساخس . وقد احتفل فرويد بهذه المناسبـة بأن قدم لكل واحـد منهم فصاً يـونانيـاً من مجموعتـه ، ما لبثـوا أن جعلوها في

---

(1) رسالة من فرويد الى فرنزي ، بتـاريخ 6 آب ـ أغسـطس 1912 ، ذكرهـا جونـز في المرجـع السابق الجزء الثاني . ص 162 -163 .
تجدر الملاحظة أن أعضاء « مجموعة الحرس » كانوا جميعاً من اليهود باستثناء جونز الذي كان مسيحياً . وهم على التوالي : (ابراهام ، رانك ، فرنزي ، ساخس ، ايتنجتون ، وجونز) ويبدو أن هذا هو السبب الذي دفـع فرنزي لكتابـة تلك الرسـالة الى فـرويد ، خـوفاً من انشقاق جونز أو تراجعه . . (المترجم) . راجع مقالنا حول فـرويد، الـرمز الوثن في مجلة العرفان ، المجلد 73 العددان 4 و5 ، حزيران تموز 1985 .

(2) رسالة الى جونز بتاريخ 1 آب ـ أغسطس ـ 1912 . ذكر جونز في المرجع السابق . ص 163 .

خواتم ذهبية . وكان فرويد نفسه يحمل ، منذ زمن طويل ، خاتماً من هذا النوع ، وعندما تلقى اتنجتون خاتماً مماثلاً بعد عدة سنوات ، أصبحوا « الحلقات الذهبية السبع» التي تحدث عنها هانز ساخس في كتابه عن فرويد .

وقد اتخذ التطور اللاحق للحركة ، المسار الذي أملته الأحداث حتى تشكيل اللجنة نفسها . ويبين فرويد في كتابه « حول تاريخ حركة التحليل النفسي » الطابع شبه السياسي للحركة . فهو يعدد فتوحاته المختلفة في العديد من البلدان . ويضيف بطريقة مميزة ، معبراً عن رضاه من الانجازات في أميركا :« ولكن من الواضح ،ولهذا السبب تحديداً ، أن مراكز الثقافة القديمة ، حيث ظهرت أكبر مقاومة ، يجب أن تكون مسرحاً للمعركة النهائية والحاسمة من أجل التحليل النفسي »(1) . أو عندما كتب بشأن نضاله ضد المعارضين : « إن تاريخ (معارضة التحليل النفسي) لا يشرف رجال العلم في عصرنا . إلا أنني أستدرك قائلاً أنه لم يخطر لي على الاطلاق أن أوجه احتقاري لمعارضي التحليل النفسي لمجرد معارضتهم ، باستثناء بعض المخلوقات البائسة ، من المخادعين والمغامرين الذين نصادفهم دائماً على طرفي الجبهة أثناء الحرب »(2) ، ثم يعرض فرويد حاجة مثل هذه الحركة الى « زعيم » : معتبراً أن الكثير من العوائق التي تهدد أي انسان يأخذ التحليل النفسي على عاتقه ،«يمكن تفاديها إذا كان هناك من هو مهيأ للتعليم ولتولي منصب سلطوي . . ينبغي وجود من يقول : كل هذه التفاهات لا علاقة لها بالتحليل النفسي »(3) .

---

(1) فرويد : « مساهمة في تاريخ حركة التحليل النفسي » . بالفرنسية ص 105 .

(2) المرجع نفسه ص 115 .

(3) المرجع نفسه ص 121 .

وهكذا ، ولدت منظمة دولية ، مع فروع لها في بلدان عديدة ، وقوانين صارمة تحدد من يمكن اعتباره محللاً نفسياً . ونحن نرى هنا ، ما يندر ملاحظته في المجالات العلمية الأخرى : نظرية علمية يرتبط تقدمها باكتشافات مؤسسها لعشرات السنين ، دون أي حرية بمراجعة أو انتقاد أطروحاته الأساسية . وحتى اللغة التي يستخدمها فرويد ، لها هذا الطابع شبه السياسي . فهو يتكلم عن مؤتمر عام 1910 ، كما لو أنه مؤتمر «Reichtag de Nuremberg» الذي سيضع حداً « لطفولة حركتنا » . وفي الوقت الذي بدأ فيه يونغ ، وفقاً لفرويد ، في الاهتمام الزائد بالأساطير وتفسيرها ؛ وجّه اليه فرويد تحذيراً وكتب الى جونز بهذا الشأن (في 22 كانون الثاني ـ يناير 1911) :

« إنني أكثر اقتناعاً من ذي قبل ، بأنه رجل المستقبل . إن أبحاثه الخاصة حملته بعيداً في مملكة الأساطير التي يريد الدخول اليها باستخدامه مفتاح نظرية الليبيدو . وبالرغم من ايجابيات أعماله كلها ، فإنني دعوته للعودة في الوقت الملائم الى ميدان العصاب . حيث وطننا الأم الذي يجب أن نعزز فيه مملكتنا ضد كل شيء وضد كل إنسان »(1) .

وفي مجالات أخرى ، يتحدث فرويد عن « مستعمرات » التحليل النفسي في مواجهة الوطن الأم . وهي دون شك ، لغة مؤسس الامبراطوريات أو القائد السياسي . فالفتى الذي أعجب بالماريشال ماسينا ، والمراهق الذي أراد أن يكون قائداً سياسياً ليبرالياً أو اشتراكياً ، والبالغ الذي يتماهى مع هنيبعل أو مع موسى ، يرى في التحليل النفسي وسيلة انقاذ ، وفتح للعالم من أجل مثل أعلى . أما ما هو هذا المثل

(1) المرجع السابق . ص 149 .

الأعلى، فالجواب ليس يسير المنال . لقد كبت فرويد وأتباعه وعيهم بمهمتهم . لم تتجه فكرتهم مباشرة إلى أهداف شبه دينية . كانت طريقة علاجية ، وكانت أيضاً نظرية التحليل النفسي للاوعي ، والكبت ، والمقاومة ، والتحويل ، وتفسير الأحلام . . . ولكن لا شيء هنا يمكن أن يشكل بوضوح نواة للايمان . لقد بقي محتوى هذا الايمان « ضمنياً » دائماً . ظاهراً ، لم يكفّ فرويد عن إنكار أن يكون التحليل النفسي فلسفة للحياة : « إن التحليل النفسي كعلم متخصص غير جدير بخلق مفهوم خاص للعالم Weltanschaucing ؛ وعليه التوافق مع نظرة العلم . . . لكن النظرة العلمية للعالم تختلف بشكل دقيق عن تعريفنا . . باقتصارها على كل ما هو معروف ورفضها لكل العناصر الغريبة عنها »[1] .

وهكذا ، ينفي فرويد ، وفقاً لتعبيراته نفسها ، وجود فلسفة خاصة بالتحليل النفسي ؛ ولكن إذا لاحظنا هنا جميع الوقائع ، أستطيع التوصل إلى أن هذا ما يعتقده فرويد بطريقة واعية ، وهذا ما يريد الاعتقاد به ، بينما رغبته في تأسيس دين جديد فلسفي ـ علمي ، كانت مكبوتة ، أي لا واعية .

ومع ذلك ، فإن فرويد نفسه ، كتب في رسالة مؤثرة الى فرنزي ، في (8 أيار ـ مايو ـ 1913) : « من المحتمل جداً هذه المرة ، أن نُدفن حقاً ، بعد أن تتلى علينا معزوفة جنائزية . إن ذلك سيغير كثيراً مصيرنا الشخصي ، لكنه لن يبدل مطلقاً مصير العلم . إننا نمتلك الحقيقة ؛ انني متأكد من ذلك منذ خمسة عشر سنة »[2] ماذا كانت تلك الحقيقة ؟ وماذا

---

(1) فرويد «Nouvelles conférences la psychanalyse» . منشورات Idées 1971 . ص . 209

(2) جونز . المرجع السابق . المجلد الثاني . ص 158 .

كانت نواة ذلك الدين التحليلي النفسي ، وماذا كانت تلك العقيدة التي انبثقت منها الطاقات الخاصة لتأسيس الحركة ونشرها ؟

أعتقد أن فرويد يعبر بوضوح تام عن هذه العقيدة المركزية في « الأنا والهو » : « إن تطور الأنا يتقدم ، من معرفة الغرائز الى السيطرة عليها ، ومن الخضوع لها الى ضدها . إن الأنا الأعلى الذي يتشكل جزئياً من رد الفعل ضد السيرورات الغرائزية الموجودة في الهو ، يشارك في حصة كبيرة في هذا الانجاز . إن التحليل النفسي هو الوسيلة التدريجية لاقتحام الهو »[1] . يعبّر فرويد هنا عن هدف أخلاقي - ديني ، هو اقتحام الرغبة بواسطة العقل . أما جذور هذا الهدف فتكمن في البروتستانتية ، في فلسفة الأنوار وسبينوزا ، وفي دين العقل : لكن كل ذلك اتخذ شكلاً خاصاً في المفهوم الفرويدي . لقد استمرت المحاولات حتى فرويد ، للسيطرة على الآثار اللاعقلانية للانسان بواسطة العقل ، دون معرفتها ، أو حتى دون معرفة مصادرها العميقة . إن فرويد الذي يعتقد أنه اكتشف هذه المصادر في الدوافع الليبيدية وآلياتها المعقدة من الكبت ، والتسامي ، وتكوين الأعراض ، . . . سيتخيل حتماً ، أنه لأول مرة سيتحقق الحلم القديم في السيطرة على الذات والعقلانية التي كانت تداعب الانسان منذ زمن طويل جداً . يمكن أن نجد هنا مقارنة مع ماركس : فقد ظن هذا الأخير أنه وجد القاعدة « العلمية » للاشتراكية ، مقابل ما أطلق عليه « الاشتراكية الطوباوية » ، كذلك شعر فرويد بأنه وجد القاعدة العلمية لهدف أخلاقي قديم ، وأنه أنجز ، بالتالي تقدماً قياساً الى الأخلاقية الطوباوية (الخيالية) التي تطرحها الأديان والفلسفات . وبما أنه لا يثق مطلقاً بالانسان العادى ، اعتبر أن هذه الأخلاقية العلمية الجديدة هدفاً لا

---

(1) الأنا والهو . « محاولات في التحليل النفسي » . منشورات بايو . باريس . 1963 .

يمكن إنجازه الا على أيدي النخبة ، وان التحليل النفسي هو الطليعة النشيطة ، الصغيرة ، لكن المنظمة ، التي ستؤدي الى انتصار المثال الأخلاقي .

ربما كان باستطاعة فرويد أن يصبح قائداً اشتراكياً ، أو زعيمَ حركة أخلاقية ـ ثقافية ، أو لأسباب أخرى ، أحد رموز الحركة الصهيونية . ربما كان باستطاعته ذلك . . ولكن ، واقعاً ، كان ذلك مستحيلاً ، لأنه بالاضافة الى رغبته في حل لغز الوجود الانساني ، كان يحمل هماً يشغله كلياً ، فقد بدأ مهنته كطبيب ، وكان شديد الحساسية والظن أن يصبح زعيماً سياسياً . إلا أنه ، وفي ظلال مدرسة علمية ، حقق حلمه القديم : أن يكون موسى الذي دل الجنس البشري على الأرض الموعودة ، أي اقتحام الهو بواسطة الأنا ، والوسيلة الناجحة لذلك .

IX ـ قناعات فرويد الدينية والسياسية

من المهم أن نطرح ، فيما توصلنا اليه ، ما هي قناعات فرويد الدينية والسياسية . إن الإجابة على القسم الأول من السؤال يسيرة المنال لأن فرويد عبّر بوضوح عن ذلك في كتابات متعددة خاصة في « مستقبل وهم » . فهو يعتبر الايمان بالله عملية تثبيت للحنين لشخص الأب الحامي ، وتعبيراً عن الرغبة في الانقاذ والمساعدة ، بينما لا يستطيع الانسان انقاذ نفسه أو حتى مساعدتها إلا بالتخلي عن أوهامه الطفولية وباللجوء الى قوته وعقله وقدراته .

وبالمقابل ، إن اتجاه فرويد السياسي أكثر صعوبة في التمييز ، لأنه لم يعلن عنه مطلقاً . كما أنه أكثر تعقيداً وتناقضاً من موقفه إزاء الدين . فمن جهة نستطيع أن نلاحظ بوضوح ميول فرويد الراديكالية كما أشرنا الى ذلك ، في فترة صداقته لهاينريش براون وتأثره على الأرجح بالأفكار الاشتراكية . وعندما قرر قبل دخوله الى الجامعة ، دراسة الحقوق ليتسنى له ممارسة مهنة سياسية ، كان مدفوعاً لذلك دون شك ، بحماسه للأفكار الليبرالية السياسية . إن هذا التعاطف نفسه هو الذي حرّك اهتمامه بأعمال جون ستيوارت ميل ، التي ترجمها ، وهو التعاطف نفسه الذي استمر حتى عام 1910 عندما فكّر في الانضمام ، مع محللين آخرين ، الى الأخوة العالمية للاخلاق والثقافة .

لكن ، بالرغم من تعاطفه المبكر مع الأفكار الليبرالية أو حتى الاشتراكية ، فإن الصورة التي رسمها فرويد للانسان لم تتجاوز مطلقاً صورة انسان الطبقة الوسطى في القرن التاسع عشر . وفي الواقع ، إن نظامه السيكولوجي بأسره لا يمكن تقديره تماماً ما لم نفحص الفلسفة الاجتماعية التي بُني عليها .

لنتأمل أولاً في مفهوم التسامي

لقد اعتبر فرويد أن النخبة ، التي تمتنع عن إشباع رغباتها الغرائزية ، ـ في مواجهة العامة ـ تستطيع « توفير » رأسمالها النفسي من أجل انجازات ثقافية . إن اللغز الشامل للتسامي الذي لم يشرحه فرويد على الاطلاق بطريقة مُرضية ، هو في الواقع لغز تشكل رأس المال وفقاً لاسطورة الطبقة الوسطى في القرن التاسع عشر . فكما أن الثروة هي نتاج التوفير ، فإن الثقافة أيضاً هي نتاج الحرمان الغرائزي . هناك جانب آخر من صورة الانسان في القرن التاسع عشر التي تقبّلها فرويد تماماً وحوّلها الى نظريته السيكولوجية ؛ وأعني بها صورة الانسان العدواني أساساً والتنافسي . ويعبر فرويد بوضوح تام عن هذه الأفكار في تحليله للثقافة :

« الإنسان حيوان مُعْتَدٍ : من يملك الشجاعة ، أمام كل تعاليم الحياة والتاريخ ، لنفي هذا الأمر ؟ إن هذه العدوانية ، كقاعدة عامة ، تكون قاسية ، أو تنتظر إثارة ما ، أو تضع نفسها في خدمة مشروع ما يتحقق هدفه بوسائل أكثر ليونة ونعومة . وفي بعض الظروف المؤاتية ، يحصل العكس ، عندما تقف القوى الأخلاقية مثلاً في مواجهة هذه التعبيرات فتصدها إلى حين ثم تتعطل ، عندها تظهر العدوانية بشكل تلقائي وتكشف في الانسان حيواناً متوحشاً يفقد أي اعتبار لبني

جنسه »(1) .

هذه العدوانية الطبيعية تحدد سمة أخرى من سمات الطبع في الصورة الشائعة عن الانسان ، وعن رغبته الفطرية في المنافسة . « إن المجتمع المتمدن يتعرض دائماً للتفكك من خلال العدوانية البدائية للناس تجاه بعضهم البعض »(2) . هذه العداوة لا تقوم على اللامساواة الاقتصادية الا ظاهراً. إن إلغاءنا للملكية الخاصة ، يحرم العدوانية الانسانية وسيلة من وسائلها ، وسيلة قوية ، دون شك ، لكنها ليست أقواها على الاطلاق » . إذن ، ما هو الأساس الأقوى لدافع التنافس الإنساني ، أو بالأحرى للتنافس الذكري ؟

إنها رغبة الرجل غير المحدودة في الوصول الى جميع النساء اللاتي يستطيع امتلاكهن . هذه المنافسة تحصل أصلاً بين الأب والأبناء لامتلاك الأم ؛ ثم يليها منافسة بين الأبناء أنفسهم لامتلاك جميع النساء الممكنات . « لنفترض أننا ألغينا الحقوق الشخصية في الأشياء المادية ، فلن يبقى دائماً سوى الامتيازات في العلاقات الجنسية ، التي تثير أقوى الضغائن وأعنف العداوة بين رجال ونساء ، يكونون متساوين »(3) .

كان الإنسان عند مفكري الطبقة الوسطى في أيام فرويد ، شخصاً معزولاً ومكتفياً ذاتياً . إن حاجته الى بعض السلع ، كانت تدفعه للذهاب الى السوق ، فيصادف أفراداً آخرين يحتاجون ما يود هو بيعه ، ويبيعون ما يحتاجه هو نفسه ، وهكذا يشكل هذا التبادل المفيد جوهر اللحمة الاجتماعية . وقد عبّر فرويد في نظرية الليبيدو عن الفكرة نفسها

(1) « قلق في الحضارة » منشورات PUF . باريس 1971 . ص 65 .
(2) المرجع السابق ص 64 -65
(3) المرجع نفسه ص 67 .

بمصطلحات سيكولوجية بدلاً من المصطلحات الاقتصادية . إن الإنسان ، أساساً ، آلة يحركها الليبيدو الذي ينظم نفسه بالرغبة عبر خفض التوتر المؤلم الى أكبر قدر ممكن ، وهذا ما يشكل طبيعة اللذة نفسها . ومن أجل التوصل إلى هذا الإشباع ، يحتاج الرجال والنساء الى بعضهم البعض . فينخرطون في إشباع متبادل لحاجاتهم الليبيدية يُعتبر أساساً لاهتمام كل منهم بالآخر . إلا أنهم ، رغم ذلك ، يبقون أساساً منعزلين ، تماماً كما يفعل البائع والمشتري في السوق، اللذين ينجذبان نحو بعضهما البعض لاشباع رغباتهما الغرائزية ، إلا أنهما لا يتجاوزان انفصالهما الاساسي . إن الإنسان ، بالنسبة لفرويد ، كما بالنسبة لمعظم مفكري ذلك العصر ، لم يكن حيواناً اجتماعياً إلا بسبب حاجته للاشباع المتبادل لرغباته ، لا بسبب رغبة فطرية للارتباط بالآخر .

هذا الوصف للعلاقة بين صورة فرويد للانسان ، وبين صورة الطبقة الوسطى ، تبقى ناقصة إذا لم نذكر هنا مفهوماً أساسياً في النظرية الفرويدية هو « الجانب الاقتصادي لليبيدو » . إن الليبيدو ، وفقاً لفرويد ، هو دائماً كَمٌ ثابت ، يمكن انفاقه بطريقة أو بأخرى لكنه يخضع لقوانين المادة : ما يُنفَق لا يمكن استرجاعه . هذا المبدأ يكمن في طيات مفاهيم كالنرجسية ، التي إما أن تدفع الليبيدو نحو الخارج ، وإما أن تدفعه نحو الأنا الذاتي ؛ إنه يكمن أيضاً في مفهوم الدوافع التدميرية التي اما تتجه نحو الآخرين واما نحو الذات ؛ انه يكمن في رأي فرويد ، في استحالة الحب الأخوي ، الذي يعبر عنه بكل وضوح ، في نص سبق لنا ذكره ، مستنداً على مفهومه عن « الكميات الثابتة » مبيناً عبثية الأمر التالي : « أحبب قريبك كنفسك » :

« إن حبي في نظري شيء ثمين جداً بحيث لا أملك الحق في

هدره والتفريط به دون إدراك . . . إنني أقترف ظلماً (إذا أحببت الآخر) لأن أهلي وأصحابي جميعاً يعتبرون حبي لهم بمثابة تفضيل وإيثار ؛ وسأكون ظالماً لهم لو خصصت غريباً بالحب نفسه . وإذا كان لا بد ، من اشراكه في مشاعر الحب التي تخالجني إزاء الكون قاطبة ، لأنه أيضاً يحيا على هذه الأرض مثل حشرة ، أو دودة أو ثعبان ، فإنني أخشى ألا يصيبه من ذلك الحب سوى النذر اليسير ، وألا أهبه أكثر مما يسمح لي به العقل من أجل نفسي »[1] .

لا حاجة هنا لمزيد من الشرح لنبرهن أن فرويد يتحدث عن الحب ، كما يتحدث أي شخص في عصره عن الملكية أو عن رأس المال . وفي الواقع ، انه يستخدم الحجة الصحيحة التي غالباً ما تستعمل ضد اشتراكية أسيء فهمها : إذا قسّم كل رأسماليي العالم أموالهم بين الفقراء ، فلن يحصل كل واحد سوى على كمية ضئيلة .

لقد كانت لدى عالِم الاقتصاد ، وكذلك لدى الرجل العادي في القرن التاسع عشر ، صورة عن الانسان ، تنزع لأن تبرهن أن الرأسمالية المعاصرة هي أفضل جواب على وجود الانسان لأنها تشبع الدوافع الملازمة للطبيعة الانسانية . إن أيديولوجيي أي مجتمع يتصرفون بالطريقة نفسها ، وهم مجبرون على ذلك ، لأن قبول أي نظام اجتماعي يتدعم بالاعتقاد بأنه نظام طبيعي ، وبالتالي فهو ضروري وجيد . إن ما أريد الاشارة اليه ، أن فرويد لم يتجاوز الفكرة السائدة عن الانسان في مجتمعه . بل وأضاف أيضاً ثقلاً جديداً لتلك المفاهيم بأن برهن الى أي مدى ترتكز على الطبيعة العميقة لليبيدو وطريقة عمله . بهذا الصدد ، كان فرويد حقاً ، عالم نفس مجتمع القرن التاسع عشر ، الذي برهن أن الفرضيات

(1) المرجع السابق ص 61 -62 .

المتعلقة بالانسان ، الملازمة للنظام الاقتصادي ، أكثر صحة مما تخيله الاقتصاديون . إن مفهومه عن الانسان الجنسي Homo sexualis كان نسخة معمقة وموسعة عن مفهوم الانسان الاقتصادي L'Homô oeconomicus عند الاقتصاديين . ولم يختلف فرويد عن الصورة التقليدية إلا في نقطة واحدة فقط . فقد أعلن أن درجة الكبت الجنسي في ذلك الوقت غير طبيعية وتؤدي الى العصاب . لكنه مع ذلك ، لم يطرح التساؤ ل حول الصورة الاساسية للانسان ؛ بل كغيره من الاصلاحيين الليبراليين، حاول أن يخفف العبء عن الانسان دون أن يخرج من إطار الصورة التقليدية نفسها للكائن الانساني .

لم يختلف فرويد أيضاً في صورته النظرية للطبيعة الانسانية عن معظم معاصريه ، وكذلك في « موقفه السياسي » من الحرب العالمية الأولى ، التي كانت اختباراً حاسماً لا للميول القلبية فقط ، بل للعقل ولواقعية الناس في ذلك العصر . كتب جونز :

« إن ردة فعل فرويد المباشرة على اعلان الحرب كانت غير متوقعة الى حد ما . إذ انه من المفترض في عالم مسالم في الثامنة والخمسين من العمر أن تثير الحرب بكل بساطة ، اشمئزازه . لكنه ، وخلافاً لذلك ، عبّر في بادىء الأمر عن حماس صبياني ، ما هو إلا استيقاظ لشغفه العسكري في شبابه . وقد وصل به الأمر الى حد وصف ما اقترفه Berchthold (وزير الشؤ ون الخارجية النمساوي) بأنه « تحرير من خلال فعل جسور » وأضاف أنه لأول مرة ، منذ ثلاثين سنة يشعر بأنه نمساوي . . انه متشتت ، لا يستطيع الانصراف لأي عمل ، يمضي وقته في مناقشة الأحداث اليومية مع أخيه الكسندر . ويقول : « لقد وهبت كل

الليبيدو الذي عندي للنمسا ـ هنغاريا »(1) .

لقد قارن فرويد أحداث الحرب مع تلك التي تخوضها حركته . فقد كتب في رسالة الى « هيتشمان » : « لقد ربحنا الحملة ضد سويسرا ، ولكني أتساءل إذا كان الألمان سينتصرون في نهاية هذه الحرب ، وإذا كنا سنستطيع الصمود حتى ذلك الوقت . لنأمل ذلك بقوة . إن الغضب الألماني يبدو ضمانة لذلك ، والانبعاث النمساوي لا بد آت »(2) .

إن تأليه جونز لفرويد ، نموذجي هنا ، وكذلك نظرته التحليلية الأرثوذكسية التي ترى المشكلة الأخلاقية والسياسية لحماسة فرويد للحرب تختبىء خلف « التفسير » بـ « حماس صبياني ، هو استيقاظ لشغفه العسكري في طفولته . . . » ولا شك أن جونز شعر بقليل من الاحراج في نقله لردة فعل فرويد ، ولذلك أضاف : « إلا أن هذه الحالة لم تدم أكثر من خمسة عشر يوماً ، استرجع بعدها فرويد أفكاره »(3) . ولكن لم يكن الأمر كذلك في الواقع ، كما يدل على ذلك عدة إشارات لاحقة لجونز نفسه . فقبل كل شيء « لم يسترجع أفكاره » إلا بشأن النمسا ، ولسبب لم يكن عقلانياً على الاطلاق . « إنه أمر غريب جداً » ، كتب جونز ، « لأن انقلاب مشاعر فرويد كان نتيجة اشمئزازه من المواجهة غير المتكافئة التي يخوضها وطنه الجديد في حملته ضد الصرب »(4) . ولكن ، فيما يتعلق بألمانيا ، فقد احتاج الى بضع سنوات ، وليس الى خمسة عشر يوماً لتهدئة حماسه . وكذلك في عام 1918 ، تمنى فرويد النصر لألمانيا ، رغم أنه اعتبر

---

(1) جونز . المرجع السابق . المجلد الثاني . ص 182 . رسالة الى ابراهام بتاريخ 26 تموز 1914

(2) المرجع السابق . (رسالة الى هيتشمان بتاريخ آب ـ أغسطس 1914) .

(3) المرجع السابق ص 183 .

(4) المرجع السابق ص 183 .

ذلك غير محتمل[1] . ولم يتراجع عن أوهامه إلا مع نهاية الحرب . ولكن خلافاً لما حصل لدى الكثيرين ، فإن تجربة الحرب العالمية الأولى ، واحباطه الذاتي بهذا الشأن ، كان له تأثيراً عميقاً وساطعاً على فرويد . ففي بداية الثلاثينات وخلال تبادل مميز للرسائل مع ألبرت أينشتاين حول امكانية عمل شيء ما لمنع الحروب المقبلة ، تحدث فرويد عن نفسه وعن أينشتاين على أنهما من أنصار السلام ولم يترك أي مجال للشك بشأن معارضته للحرب . ومع ملاحظته لاستعداد الانسان المسبق للانخراط في الحرب المتجذر في غريزة الموت ، فإنه يعلن أن الميول التدميرية ستصبح مع نمو الحضارة أكثر تخزيناً (من خلال الأنا الأعلى) ، ويعبّر عن الأمل في ألا يكون التفكير خيالياً في أن يؤدي تخزين العدوان والرعب مما قد تسببه حرب ثانية ، إلى وضع حد لجميع الحروب في مستقبل غير بعيد[2] .

ولكن فرويد ، يعبّر في الوقت نفسه ، في رسالته الى أينشتاين عن موقف سياسي يجعله في أقصى يمين الليبرالية ، وهو ما عبّر عنه أيضاً في « مستقبل وهم » . لقد أعلن أن تقسيم الناس إلى قادة وأتباع هو وجه من وجوه اللامساواة التكوينية التي لا تتغير بين الناس . إن الاتباع الذين يشكلون الأغلبية الواسعة ، يحتاجون الى سلطة تتخذ القرارات من أجلهم ، ويخضعون لها بشكل مطلق تقريباً . إن الأمل الوحيد ، يكمن في هذه النخبة التي تشكل أرستقراطية ، قادرة على استخدام عقلها دون خوف في معركة الحقيقة . وسيؤدي ذلك بشكل طبيعي « الى مجموعة

---

(1) رسالة الى ابراهام في 22 مارس ـ آذار ـ 1918 . ذكرها جونز في المرجع السابق المجلد الثاني ص 209 .

(2) نشرت هذه المراسلات مع أينشتاين بالانكليزية في Collected papers المجلد الخامس Hogarth press . لندن 1952 . بعنوان « لماذا الحرب » «Why wai?» .

من الناس أتبعت حياتها الغرائزية لدكتاتورية العقل »[1] .

مرة أخرى ، نجد هنا مثال فرويد الأساسي : سيطرة العقل على الغريزة ، ممتزجاً بريبة عميقة في قدرة الانسان العادي على توجيه مصيره الخاص . ذلك هو أحد الوجوه المأساوية في حياة فرويد : فقبل عام من انتصار هتلر ، كان يائساً من إمكانية الديمقراطية ، واعتبر أن الأمل الوحيد ، ديكتاتورية نخبة من رجال شجعان على استعداد للتضحية . أليس ذلك هو الأمل الذي تقوده فقط نخبة محللين ، وتسيطر به على الجماهير البليدة ؟

(1) المرجع السابق .



X ـ ملخص ونتيجة

لقد حاول التحليل السابق أن يبرهن أن هدف فرويد كان تأسيس حركة تحرر أخلاقي للانسان ، وديناً جديداً ، علمانياً وعلمياً ، من أجل نخبة عليها أن تقود الانسانية .

إلا أن دوافع فرويد التبشيرية لم تتمكن من تحويل التحليل النفسي الى هذه الحركة ، لم تكن كذلك دوافع اتباعه ، وبالتالي دوافع الجمهور الكبير الذي انجذب بحماس الى التحليل النفسي .

من كان أولئك الاتباع الأكثر إخلاصاً، حاملي الخواتم الذهبية الستة؟ انهم من مثقفي المدن الذين، يرغبون بعمق أن يكونوا في خدمة. مثال، وزعيم حركة ، لكنهم محرومين من أي مثال ، ومن أي قناعة دينية ، سياسية أو فلسفية : ليس بينهم اشتراكي ، أو صهيوني ، أو كاثوليكي ، أو يهودي أرثوذكسي . (ربما كان لـ Eitingon بعض التعاطف مع الصهيونية) . كان دينهم ، هو حركة التحليل النفسي . ودائرة المحللين التي تتسع يوماً بعد يوم كانت من الوسط نفسه ؛ إن الأغلبية العظمى كانت ولا تزال من مثقفي الطبقة الوسطى ، التي لا تعيش أي اهتمام أو أي التزام ديني ، سياسي أو فلسفي . كما أن الشعبية الكبيرة للتحليل النفسي في الغرب ، وخاصة في الولايات المتحدة ، منذ بداية الثلاثينات ، كان لها القاعدة الاجتماعية نفسها . انها طبقة وسطى ، فقدت الحياة أي

معنى بالنسبة لها . ليس لها أي هدف سياسي أو مثال ديني، لكنها تبحث عن معنى للحياة ، وعن فكرة تضحي في سبيلها ، وعن تفسير للحياة لا يتطلب إيماناً ولا تضحية ، ويشبع حاجتها لأن تكون جزءاً من حركة . هذه الحاجات جميعاً لبّتها لهم حركة التحليل النفسي .

لكن الدين الجديد شارك في مصير معظم الحركات الدينية . وسرعان ما خف الحماس ، والتلقائية الأصلية ؛ وتكرست تراتبية استمدت مكانتها من التفسير « الصحيح » للعقيدة ومن سلطتها في الحكم على من يعتبر تابعاً مخلصاً أو غير مخلص للدين . وحلّت العقيدة ، والطقوس ، وعبادة الزعيم ، محل الابداعية والتلقائية .

إن الدور الملحوظ الذي لعبته العقيدة في التحليل النفسي الأرثوذكسي لا يحتاج لأي برهان . فخلال خمسين سنة لم يحصل سوى تقدم نظري طفيف عن التجديد النظري الفرويدي[1] . فقد تم الاكتفاء أساساً بتطبيق نظريات فرويد على المادة العيادية ، مع ميل دائم للبرهان ان فرويد على حق، وقليل جداً من التفكير باحتمالات نظرية أخرى . وحتى التطور الأكثر استقلالية ، في التشديد الجديد على « الأنا » ، فيبدو الى حد بعيد إعادة صياغة لكثير من أفكار النظرية الفرويدية دون أن يؤدي ذلك الى تطلعات جديدة . وبغض النظر عن العقم النسبي للفكرة التحليلية النفسية « الرسمية » فإن جمودها يبدو واضحاً في ردة فعلها تجاه

(1) ان التنقيح الكبير الوحيد للفكرة التحليلية النفسية ، هو مفهوم غريزة الحياة والموت الذي قدمه فرويد ولم يتقبله تماماً جميع المحللين الأرثوذكس ولم يتطور فيها بعد . وفرويد نفسه لم يأخذ على عاتقه المراجعة الحيوية لمفاهيمه الميكانيكية القديمة التي جعلتها نظريته الجديدة - برأيي - ضرورية . لهذه الأسباب ، وفي حدود هذه الدراسة ، لم أرجع الا الى أساس نظرية فرويد ، أي الى القسم الذي سبق مناقشة غريزة الموت .

أي انحراف . وقد سبق وذكرت أحد الأمثلة الأشد دلالة على ذلك ، في موقف فرويد من فكرة فرنزي بأن المريض يحتاج الى المحبة كشرط لعلاجه . وهو كاف ليبين ما حدث وما يحدث أيضاً في كل مكان داخل حركة التحليل النفسي . إن المحللين الذين ينتقدون أفكار فرويد علانية ، يُعتبرون ، بكل صراحة ، خرافاً ضالة ، حتى ولو لم تكن لديهم نية تأسيس « مدارس » جديدة ، بل يعرضون مجرد ملاحظات وأفكار تستند أساساً على المقولات الفرويدية .

إن العنصر الطَقْسي في التحليل النفسي الأرثوذكسي ، بديهي أيضاً . فالمتكأ وكنبة المحلل خلفه ، والجلسات الأربعة أو الخمسة أسبوعياً ، وصمت المحلل ، إلا عندما يدلي « بتفسير » ما ، كل ذلك قد تحول من وسائل مفيدة الى طقس مقدس ، لا معنى للتحليل النفسي الأرثوذكسي بدونه . قد يكون المتكأ أكثر الأمثلة دلالة على ذلك . فقد اختاره فرويد لأنه لم يرغب في البقاء ثماني ساعات تحت الأنظار يومياً » . ولأن المريض لا يجب أن يلحظ ردة فعل المحلل على ما يقوله ، لذا من الأفضل أن يجلس المحلل خلفه ؛ أو أن يشعر المريض براحة أكثر عندما لا يحتاج إلى النظر للمحلل ؛ أو لأن « وضع المتكأ » (وهو أمر تم التشديد عليه مؤخراً) يخلق وضعية طفلية اصطناعية ، توفر أفضل تطور للنقل Transfert . ومهما كانت أهمية هذه الاعتبارات في أي نقاش « طبيعي » حول التقنية العلاجية ، (وأعتقد شخصياً أنها ليست بذات أهمية)فيمكن مواجهتها بحرية تامة . ولكن الأرثوذكسية التحليلية تعتبر أن مجرد عدم استخدام المتكأ ، دليلاً على الانحراف وبرهاناً على أن من يقوم بذلك ليس محللاً .

وقد انجذب كثير من المعالجين الى هذا الطقس نفسه ؛ فشعروا

بأنهم جزء من الحركة ، وباحساس بالتضامن مع كل الذين خضعوا للتحليل ، وبالتفوق على من لم يخضعوا له . وغالباً ما ينشغل هؤلاء بانتمائهم الى المسكن الروحي الذي عثروا عليه ، أكثر من انشغالهم بالشفاء .

وأخيراً ، إن « عبادة وتأليه شخصية فرويد » تُتم الطابع شبه السياسي لحركة التحليل النفسي . وسأكتفي هنا ، توخياً للاختصار باستعادة صورة التأليه التي يقدمها جونز عن فرويد ، حيث ينفي اهتمام فرويد بالناس ، وينفي تسلطه وأي شكل من أشكال الضعف الإنساني عنه . وهناك نموذج شهير آخر للعقدة نفسها ، وهو عادة الكتّاب الفرويديين الأرثوذكس بالابتداء دائماً « كما قال فرويد » وبالختام بالجملة نفسها ، حتى لو كانت تلك الاستشهادات الوفيرة غير مفيدة في إطار النص أو المقال .

لقد حاولت أن أبين أن التحليل النفسي قد تطور كحركة شبه دينية ، قامت على نظرية نفسية تم تطبيقها بطريقة علاجية . وهذا في حد ذاته أمر مشروع تماماً . أما الانتقادات التي تعبّر عنها هذه الصفحات فهي موجهة الى أخطاء وحدود الطريقة التي تطور بها التحليل النفسي . فأولاً وقبل كل شيء ، عانى التحليل من العلة نفسها التي ادعى علاجها : الكبت . فلم يقبل فرويد ولا أتباعه ، لا فيما بينهم ولا تجاه الآخرين أن يتجاوزوا الانجازات العلمية والعلاجية . لقد كبتوا طموحهم في غزو العالم ، بمثال يبشر بالخلاص ، ولهذا السبب وقعوا فريسة الهموم وعدم الاخلاص التي تنتج حتماً عن كبت مماثل . أما الخطأ الثاني للحركة ، فكان طابعها التسلطي والتعصبي الذي أعاق التطور المثمر لنظرية الإنسان ، وأدى الى بيروقراطية قاسية ورثت رفات فرويد ، دون

أن ترث ابداعه أو جذرية مفهومه الأصلي .

لكن ما هو أكثر أهمية مما ذكرناه ، هو « محتوى » الفكرة فاللاوعي ، اكتشاف فرويد العظيم ، الذي أضاف في الواقع بعداً جديداً الى الحقيقة الانسانية ـ كان عنصراً من حركة تهدف الى اصلاح الانسانية . ولكن هذا الاكتشاف نفسه قد امتهن بطريقة مميتة . فقد طبق على قطاع صغير من الحقيقة ، دوافع الانسان الليبيدية وكبتها ، ولم يطبق إلا قليلاً أو لم يطبق على الاطلاق على الحقيقة الأكثر إتساعاً للوجود الانساني وعلى الظواهر الاجتماعية والسياسية. إن معظم المحللين ، بمن فيهم فرويد نفسه لم يكونوا أقل تبصراً بحقائق الوجود الإنساني وبالظواهر الاجتماعية اللاواعية ، من باقي أفراد طبقتهم الاجتماعية . وبمعنى ما ، انهم أكثر عماءً ، لأنهم يعتقدون أنهم عثروا على جواب مشكلة الحياة في صيغة كبت الليبيدو . ولكننا لا يمكن أن نكون متبصرين في بعض جوانب الحقيقة الانسانية وعمياناً في غيرها . وهذا صحيح بشكل خاص ، لأن ظاهرة الكبت بمجموعها ، هي ظاهرة اجتماعية . ففي أي مجتمع كان ، يكبت المرء أحاسيسه وهواماته التي لا تتوافق مع أفكار ذلك المجتمع . إن القوة التي تؤثر في ذلك الكبت هي الخوف من العزلة، ومن أن يصبح الانسان منبوذاً لأنه يحمل أفكاراً وأحاسيس لا يود أحد مشاركته فيها. (ان الخوف من العزلة هو في الحالات القصوى ليس سوى خوف من الجنون) . فإذا أخذنا ذلك بعين الاعتبار ، يصبح من الضروري للتحليل النفسي أن يتجاوز أفكار مجتمعه ، وان يتفحصها بنظرة نقدية وأن يتفهم الحقائق التي تولد مثل هذه الأفكار . « إن معرفة لا وعي الفرد تتطلب وتقتضي تحليلاً نقدياً للمجتمع الذي يعيش فيه » . إن عدم تجاوز التحليل النفسي الفرويدي لموقف الطبقة الوسطى الليبرالية في المجتمع ، يشكل حجة على محدوديته وعلى تجمده اللاحق في ميدانه الخاص في فهم اللاوعي الفردي .

(هنـاك وللمناسبـة ، تـواصـل غـريب ـ وسلبي ـ في هـذا الشـأن ، بـين النظرية الفرويدية الأرثوذكسية وبين النظرية الماركسية الأرثـوذكسية : فقـد أبصر الفرويديون اللاوعي الفردي وعميوا عن اللاوعي الاجتماعي ؛ بينما أدرك الماركسيون الأرثوذكس أثر العوامل اللاواعية للسلوك الاجتمـاعي ، لكنهم تميزوا بعماهم في تقدير الدافع الفردي . وقد أدى ذلك الى تدهـور في النظرية والتطبيق الماركسيين ، كما أدى ذلك تماماً في الظاهـرة المعاكسـة الى تدهور في النظرية وطـريقة العـلاج في التحليل النفسي . ولا يجب أن يدهش ذلك أحـداً . لأننا حـين ندرس المجتمـع أو الأفراد ، فنحن دائـماً أمـام كائنـات انسانيـة ، وهذا يعني أننـا أمـام دوافـع لا واعيـة ؛ اننـا لا نستطيع أن نعزل الانسان كفرد عن الانسان كعضـو في المجتمع ـ وإذا مـا فعلنا ذلك فإننا لن نفهم لا هذا ولا ذاك) .

إذن مـا هي النتيجة التي تـوصلنـا إليهـا بشـأن الـدور الـذي لعبـه التحليل النفسي الفرويدي منذ بداية هذا القرن ؟

يجب أن نشـير أولاً ، إلى أن التحليل النفسي في الأصـل منذ 1900 وحتى العشـرينات ، كـان أكثر جـذرية ممـا أصبـح عليـه بعـد أن اكتسب شعبيته واسعة . فبـالنسبـة للطبقـة المتـوسـطة التي عـاشت خـلال الفتـرة « الفيكتـورية » كـانت تأكيـدات فرويـد حول الجنسيـة الطفليـة ، وحـول الانعكـاسـات المَـرضيـة للكبت الجنسي . . . بمثـابـة الاختـراق الجـذري للمحرمات القوية ، وكان لا بد من الشجاعة والاستقلال لهذا الاختراق . ولكن ثلاثين سنة فيما بعد ، بعد أن حملت سنـوات العشرين معهـا موجـة من الحـريـة الجنسيـة وتخـلٍ واسـع عن القيم الفيكتـوريـة ، بـاتت هـذه النظريات لا تمثل أي صدمة أو إثارة . في هـذه الأثناء ، اكتسبت النـظرية التحليليـة النفسية تـأييداً واسعـاً في مختلف قطاعـات المجتمـع التي كـانت

معادية للراديكالية الصريحة ـ أي لتلك التي لم ترغب في الوصول الى جذر الأمور ـ بل كانت شغوفة بنقد وانتهاك عادات القرن التاسع عشر المحافظة . فبالنسبة لهذه الدوائر ـ « أي دوائر الليبراليين » ـ قدّم التحليل النفسي أساس الموقف الوسيط بين الراديكالية الانسانية والمحافظة الفيكتورية ـ وهكذا أصبح التحليل النفسي طريقة إشباع بديلة للتطلعات الانسانية العميقة التي تبحث عن معنى للحياة ؛ فقد بدا أنه يسمح بملامسة الحقيقة ، والتخلص من الالتواءات والاسقاطات التي تحول بين الواقع وبين أنفسنا . وهو بذلك بات بديلاً عن الدين بالنسبة للطبقات الوسطى ، وللمدينية الأقل جدية التي لا ترغب في بذل جهد أكثر جذرية واكتمالاً . فقد وجدوا ، هنا ، في التحليل النفسي كل شيء : عقيدة طقوس ، زعيم ، تراتب ، إحساس بامتلاك الحقيقة وبالتفوق على المبتدئين ، كل ذلك دون جهد كبير ، ودون فهم أكثر عمقاً لمشاكل الوجود الانساني ، ودون أي ضرورة لدراسة جدية ونقدية لمجتمعهم وتأثيراته السلبية على الانسان ، ودون أي تغيير أساسي في السمات الهامة من طباعهم ، وبمعنى آخر ـ دون أن يكونوا مرغمين على التخلص من مثالبهم ، ومن غضبهم وحماقتهم . أما كل ما حاولوا التخلص منه، فهو بعض التثبيتات الليبيدية وتحويلاتها ، وإذا اتخذ ذلك الأمر أحياناً بعض الأهمية ، فليس بما فيه الكفاية لتحقيق التغيير الضروري في الطباع للوصول الى الحقيقة . وهكذا ، بعد أن كان التحليل النفسي فكرة شجاعة وتقدمية ، أصبح العقيدة التي لا تحمل أي خطر لأولئك الأفراد الخائفين والمعزولين في الطبقة الوسطى الذين لم يجدوا الفردوس في الحركات الدينية والاجتماعية الأكثر تقليدية في عصرهم . إن انهيار الليبرالية ينعكس تماماً في انهيار التحليل النفسي .

وكثيراً ما قيل ان تطور العادات الجنسية الذي حصل بعد الحرب العالمية الأولى كان محصلة للشعبية المتنامية لعقائد التحليل النفسي . اعتقد أن هذه الفرضية غير صحيحة . ومن نافل القول أن فرويد لم يكن مطلقاً ناطقاً باسم الحرية الجنسية . بل على العكس ، وكما حاولت أن أبرهن ذلك ، كان مثال فرويد هو السيطرة على المشاعر بواسطة العقل ، كما كان يعكس في موقفه الشخصي إزاء الجنس ، القيم الأخلاقية للعصر الفيكتوري . لقد كان دون شك ، مصلحاً ليبرالياً ، من خلال نقده للاخلاق الجنسية الفيكتورية المتشددة ، والتي تؤدي لهذا السبب في بعض الأحيان ، الى العصاب ؛ لكن ذلك أمر شديد الاختلاف عن الحرية الجنسية التي شاعت في العشرينات . هذه العادات الجنسية الجديدة لها أسباب مختلفة ، لكن أهمها يكمن دون شك ، في الموقف الذي طورته الرأسمالية الحديثة في العقود الأخيرة ، أي الرغبة الدائمة والمتنامية للاستهلاك . وفي حين كان يهيمن على الطبقة الوسطى في القرن التاسع عشر مبدأ الاقتصاد ، فإنها خضعت في القرن العشرين لقانون الاستهلاك ، وللاستهلاك المباشر حتى دون رفض أو تأجيل لاشباع أي رغبة مهما كانت تافهة وغير ضرورية . هذا الوضع ينطبق على استهلاك البضائع وعلى إشباع الحاجات الجنسية في آن معاً . وفي مجتمع مبني على الاشباع الأقصى والمباشر لجميع الحاجات ، لا يمكن أن يكون هناك تمييز واضح بين مختلف الميادين . إن النظريات التحليلية لم تكن السبب في هذا التطور ، لكنها سمحت بعقلنة ميسّرة في ميدان الحاجات الجنسية . وبما أن الحرمان وكبت الحاجات الجنسية يمكن أن يؤدي الى العصاب ، ينبغي إذن ، تلافي الحرمان بأي ثمن : وهذا تماماً ، ما حث عليه المعلنون ! وهكذا ، اكتسب التحليل النفسي هذه الشعبية بين الناس ، بما هو « وسيلة » للحرية الجنسية التي تنشط الاستهلاك الجديد ، أكثر مما هو مصدر هذه

الأخلاقية الجنسية الجديدة .

وإذا اعتبرنا أن هدف حركة التحليل النفسي كان مساعدة الانسان على السيطرة على أهوائه بواسطة العقل ، فإن الطريقة الفجة التي استُخدم بها التحليل تبيّن مدى الانتهاك المأساوي للأمل الفرويدي . وحتى لو استبدلت موجة العشرينات الاباحية بعادات أكثر تحفظاً ، فإن تطور الأخلاقيات الجنسية ، كما استطاع فرويد ملاحظتها وهو حي ، لم تكن على الاطلاق ، مطابقة لما تخيله نتاجاً لحركته . ولكن ما هو أكثر مأساوية أيضاً أن العقل ـ آلة القرن التاسع عشر الذي يعني انتصاره لدى الإنسان ، تتويجاً لجهود التحليل النفسي ـ قد خسر معركته الكبرى بين 1914 و1939 . فالحرب العالمية الأولى ، وانتصار النازية والستالينية، وبداية الحرب العالمية الثانية، كانت كلها محطات متلاحقة في هزيمة العقل . وقد اضطر فرويد ، الزعيم المغرور لحركة تسعى الى عالم يقوم على العقل ، أن يشهد عصراً من الجنون السياسي والاجتماعي المتنامي .

فرويد ، آخر ممثل للعقلانية ، بدأت مأساته تنهي أيامها في اللحظة نفسها التي هُزمت فيها العقلانية على يد أكثر القوى لا عقلانية التي عرفها العالم الغربي منذ زمن محاكمات الساحرات . رغم ذلك ، ومع أن الحكم النهائي قد يكون للتاريخ فقط ، فإنني مقتنع بأن الأمر مجرد مأساة شخصية : إن الوجه المأساوي للدور الذي لعبه فرويد يكمن في موته الذي حصل عشية انتصار جنون الهتلرية والستالينية وفي الظل الذي أسدل على فظائع الحرب العالمية الثانية ، وليس في فشل مهمته . وبالرغم من تدهور حركته ، واتخاذها سمة الدين الجديد للذين يبحثون عن ملجأ في عالم يسوده القلق والاضطراب ، فإن الفكرة الغريبة تبقى ملقحة

باكتشافات فرويد ، ومن غير الممكن أن نتصور مستقبل هـذه الفكرة دون ما حملته اليها تلك الاكتشافات . انني لا أتحدث هنا فقط ، عن بداهـة ما قـدمه فـرويد من قـاعدة جـديدة للنـظريـة النفسيـة من خـلال اكتشـافـه لـلاوعي ، ومن خلال طـريقته في فهم الاحـلام ، والأعراض المـرضية ، وسمـات الطبـع ، والأساطـير والأديان ، ودلالـة الطفـولة الأولى في تـطور الـطباع ، وغـير ذلك من العنـاصر التي قـد تكون أقـل أهمية : إنني أشـير بشكل خاص إلى تأثيره على الفكر الغربي عموماً .

إن فرويد ، في الوقت الذي مثّـل فيه قمة العقلانية ، وجـه ضربـة قـاضية الى العقـلانية نفسهـا . فمن خـلال بـرهـانـه أن مصـادر النشـاط الانساني تكمن في اللاوعي ، في أعماق جلُـها لا ينكشف لعين المراقب ، وان فكرة الإنسان الواعية لا تسيـطر على سلوكـه إلا بمقدار يسـير ، قوّض الصورة العقلانية للانسان التي تعتبر أن الفكر الإنساني يسيطر على مسـرح النشاط البشري دون تحديات أو موانع . وبهـذا الصدد ، وبمقـدار اعتباره لسلطة قـوى « العالم الخفي » ، كـان فرويـد وريثاً للرومـانسية ، وخليفـة لحـركة حـاولت اختراق ميـدان اللاعقـلاني . وبهذا المعنى أيضـاً ، يمكننـا تحديد الوضع التاريخي لفرويد كرجل مزج بين قوتـين متناقضتـين سيطرتـا عـلى الفكر الغـربي في القرنـين الثامن عشـر والتـاسـع عشـر ، العقـلانيـة والـرومانسيـة . ولكن ، لتقديـر الدور التـاريخي تمامـاً لفرويـد ، علينا أن نـذهب أبعد من ذلـك . إن الطريقـة الشموليـة التي نظر بهـا فـرويـد الى الانسان تعتبر جزءاً ـ وربما ذروة ـ من أهم تيارات الفكر الغربي منذ القرن السابع عشـر : محاولـة الاستحواذ عـلى الحقيقة والاتصـال بها ، وتخليص الانسان من الأوهام التي تخفيها وتشـوهها . لقد وضع سبينوزا أسس هـذا الاتجاه في مفهومه النفسي الجديد ، الذي يعتبر الفكر الانساني عنصراً من

عناصر الطبيعة يعمل وفقاً لقوانينها . كما أن العلوم الطبيعية ، التي توجت برؤى جديدة عن طبيعة المادة ، شكلت أيضاً جهداً جديداً في الاتجاه نفسه . إن كانت ، نيتشه، ماركس ، دارون ، كيريغارد ، برغسون ، جويس ، وبيكاسو ، كل هؤلاء ، حاولوا أيضاً الاقتراب من الحقيقة ، والامساك بها ، مباشرة ودون أي التواء . وبرغم الاختلاف فيما بينهم، فإنهم يعبّرون جميعاً عن الرغبة المحمومة لانسان الغرب في رفض القدسيات المزيفة ، في الغاء الأوهام ، وفي إدراك الذات والعالم كجزء من الحقيقة الشاملة . هذا هو هدف العلم على المستوى الفكري ، وهذا هو ـ على مستوى التجربة ـ هدف الاشكال الأكثر صفاءً والأكثر عقلانية للتصوف التوحيدي ، وخاصة للتصوف الشرقي غير المؤمن بالألوهية .

إن اكتشافات فرويد تعتبر جزءاً لا يتجزأ من حركة التحرر هذه . ورغم أنها بعد ذلك ، تغيرت و« تعقلنت » بواسطة جيل من الجبناء فقدوا تلك الرغبة المحمومة في التوصل الى الحقيقة ، التي كان فرويد يتمتع بها ، فإن التطور المستقبلي للانسانية ـ إذا اعتقدنا أنها ستستمر الى ما بعد هذه الفترة القائمة من الجنون واللاعقلانية التي نمر بها ـ لا يمكن رؤيته خارج إطار المفاهيم الجديدة التي قدمها فرويد .

وقبل أن نغلق هذا الكتاب الذي تناول شخصية سيجموند فرويد ومهمته ، لنحاول أن نعود الى الوراء ،لنتأمل مجدداً هذا الشخص المميز ، وننسى الأساطير والتأليه والخصومات التي أظلمت صورته ، والا نرى فيه الا الانسان الذي كان عليه .

إننا أمام شخص متعطش للحقيقة ، يؤمن بالعقل إيماناً لا حدود له ، ذي شجاعة لا تتزعزع في مواجهة ما يمكن أن يثنيه عن هذا الإيمان . وأمام إنسان يشعر بحاجة عميقة للحب الأمومي ، وللاعجاب والحماية ،

شـديد الثقـة بنفسه حـين تتحقق هـذه الحـاجـة ، ومحبط ويـائس عنـدمـا يفتقدها ، هذا القلق الانفعالي والمـادي على حـد سواء ، يـدفعه للسيـطرة على من يتبعه ليتمكن في الوقت نفسه من الاعتماد عليه .

هذا القلق قد يدفعه أيضاً لشحذ كـل طاقتـه ليحظى بتقـدير العـالم الخارجي الذي يظنه دون مستوى اهتمامه . كما يعتقد أنه خارج صراعات السعي لتقـدير الآخـرين واعترافهم ؛ إلا أن حـاجته للمجـد والشهـرة ، ومرارة الاحباط من هذا الانتظار ، هي عناصر قوية في شخصيته .

كان فرويد في علاقاته الخارجية ، يهاجم بقوة ، وعند الدفـاع يفتك بالخصم بسرعة ونفاذ . إنه يعتبر الوجود لعبـة ألغاز فكـرية قـرر الانتصار عليها بفضل ذكائه المتفـوق . وهو يبحث في الأفكـار التي يستخدمهـا عن قيم ومعان أكثر عمقـاً . إن معركتـه الداخليـة مع الـطموح وإحسـاسه بـالقيم كثيراً مـا تثير لـديه صـراعاً فكـرياً قـاسياً ، وهـو يعبر أحيـانـاً عن إحسـاس سوداوي لأن الثمن الـذي سيـدفعـه للوصـول الى مبتغـاه غـالٍ جداً .

إن باستطاعته بذل كـل ما يملك من طـاقة ، والانصــراف الى مـا لا يحصـى من التجارب في مختلف الميادين وعلى جميع الأصعدة . كان يكرس نفسه كلياً لتفاصيل غـير مهمة ولمشـاجرات مـع أولئك الـذين لا يرحبـون بأفكاره . كان يمتلك إحساسـاً غريـزياً بسهـولة التـأثير عليـه ، ولذا كـان يحاول جاهداً أن يبدو أكثر استقلاليـة مما هـو عليه في الـواقع ، ويتشـاجر دون مبرر مع أولئك الذين يستأثرون باهتمامه أكثر .

إن طاقته وطموحاتـه في صراع دائم. إن عـداوة الآخرين وغضبهم يؤثران عليه أكثر مما يؤثران على أي شخص عادي ، مع العلم أن قـدرته عـلى السيطرة عـلى نفسه هي أيضـاً أكبر ممـا هي لدى أي فـرد عــادي .

باستطاعتـه أن يبدو ديبلومـاسياً ويتـراجع ، ولكنـه في الوقت نفسـه ، أقل الناس ديبلوماسية ، فهو عنيد غالباً ، يميل الى القيام ببعض الأشياء لمجـرد رؤ ية ما ستثيره من انفجارات .

إنه يقدر على التركيـز بسرعـة ، واستيعاب العـديد من المـواضيع . هـذه المقدرة ، في تجليـاتها المميـزة ، تجعله قريبـاً من عالميـه غوتـه ؛ لكن تأثيراتهـا السلبية تجعله هـاوياً . لكنهـا ، حتى في حالـة كهذه ، تسمـح له بـالبـروز في بعض المسـائـل . إن ذهنـه في حـالـة تيقظ دائم إزاء كـل الأهداف ؛ ويثير اهتمامه كل المواقف الكبيرة التي تتطلب قدرات عاليـة ؛ لكنـه بحاجـة ، لكي يعبر عن نفسـه ، الى منهج مستقـل . فهـو شـديـد الغضب من كـل مـا يعـرقـل مشـاريعـه ، مما يجعله في بعض الأحيـان ، متشككاً ، غريباً ، ومدعياً ؛ لكنه يتمتع في الوقت نفسه ، بحساسية فائقة تتجـلى في أسلوبه وفي قـدرته عـلى قراءة أفكـار خصمه وعـلى تـوقـع ردود فعله . إلا أنه يبدي قـدرة مميزة عـلى التأرجـح بين المعـرفة الانسـانية غـير المحدودة وبين النظرة الظنية اليائسـة للناس والأفكـار . إن باستـطاعته أن يثـير لدى الآخـرين حماسـاً أعمى وتضحية متفـانية ، وأن يقـدم شخصيته بصـورة مؤثرة واستعـراضية ، وان يتصـرف أحيـانـاً تصـرف العبقـري ، وأحيـاناً تصـرف المتزمت . إنـه يمتلك قدرة بـاهرة في إيصـال الأشيـاء إلى غاياتهـا : لكنه من أجـل ذلك ، لا تـأخذه شفقـة في أهواء الآخـرين وفي الانفعالات الشخصية التي قد تؤدي إلى هدر الوقت .

إنـه ليس إنسانـاً محباً ؛ فهـو أنوي ، تمـلأ عليه مهمتـه كل وقتـه ، وتفرض على الآخرين إتباعه وانتظاره ، والتضحية باستقلاليتهم وبحريتهم الفكرية . إن العالم بالنسبة إليه ليس سـوى المسرح الـذي ستعرض عليـه حركة التحليل النفسي ومهمته . إنه ليس مزهواً بشخصيته ، بل بمهمته ،

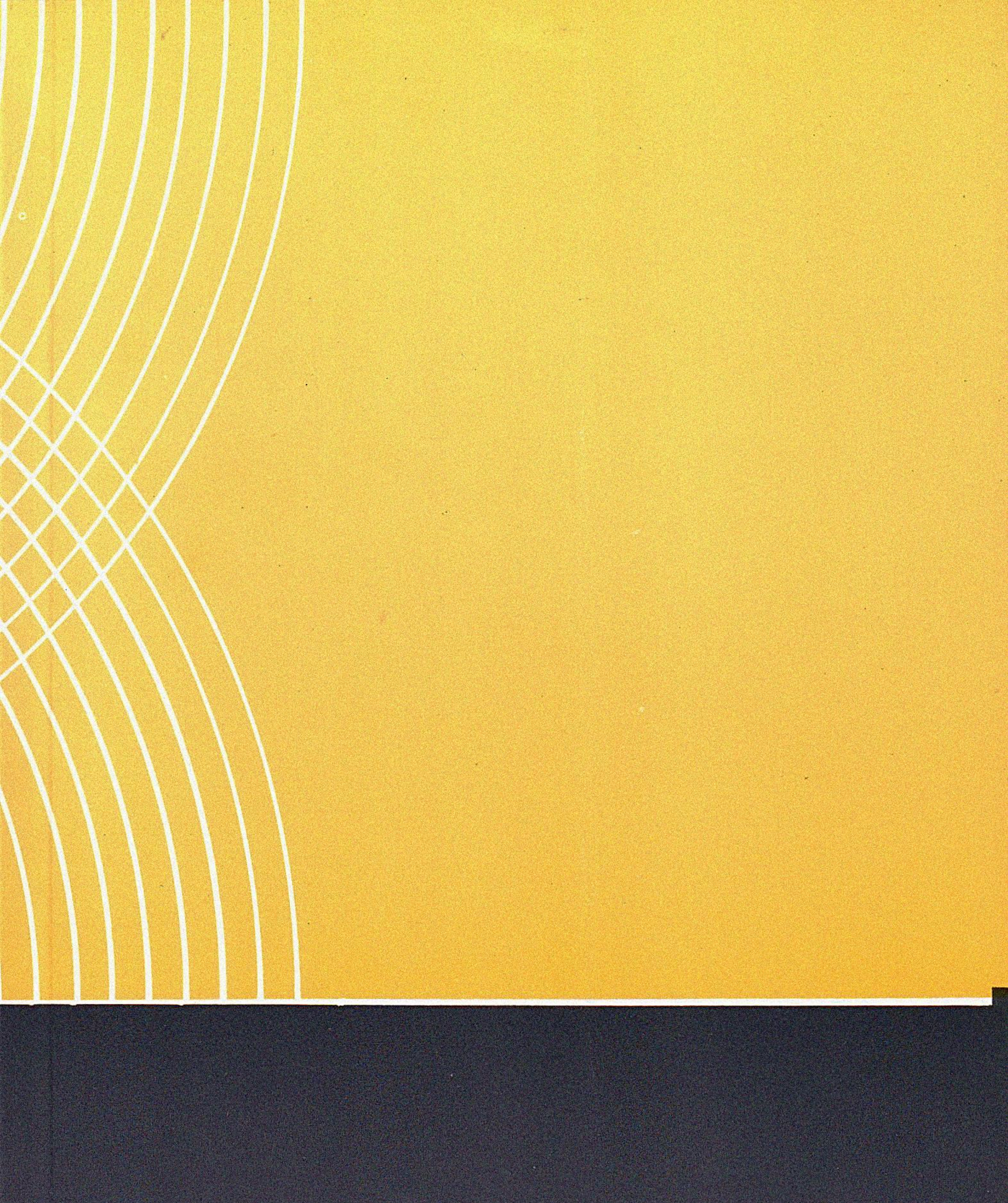
وبعظمة قضيته ، وبنفسه أيضاً كصاحب رسالة . إنه يخشى في وجوده الخاص ، أن يفقد ما ضحى من أجله ؛ ولهذا يتجنب الفرح واللذة ويلجأ إلى السيطرة على كل الميول وكل الأحاسيس بواسطة الارادة والعقل . إن الرجل المثالي بالنسبة إليه ، هو الذي يمتنع ، ويسيطر على نفسه ، ويترفع عن العامة ، ويتخلى عن أفراح الحياة ليتمتع بالطمأنينة التي لا يعكر صفوها شيء أو إنسان . إنه متطرف في علاقاته مع الآخرين وفي طموحاته ، وهو كذلك أيضاً في زهده .

إنه شخص معزول ، ورجل وحيد ، وإنسان يشعر بالتعاسة في كل مرة لا يتابع فيها بنشاط أبحاثه وأهدافه شبه السياسية . إنه شغوف ومحب للدعابة ، إلا عندما يشعر بالتحدي أو الاثارة . وبالمجمل ، إنه شخصية تراجيدية أراد لاسباب ذاتية مؤلمة ، أن يرشد الإنسان الى الأرض الموعودة للعقل والتناغم ؛ إلا أن هذه الأرض ، لم يستطع هو نفسه إلا رؤ يتها من بعيد . وهو يعلم أنه قد لا يصل إليها مطلقاً ، وربما يظن ، بعد انشقاق يونج ، أن الباقين بعده لن يصلوها هم أيضاً . هذا الرجل العظيم ، هذا الرائد ، سوف يموت وهو يشعر بإحساس عميق بالخيبة ، رغم أن كبرياءه لم يخدشه المرض ، أو الهزيمة أو خيبة الأمل .

بالنسبة لعقول أكثر استقلالية من أتباعه المخلصين ، كان فرويد دون شك ، رجلاً تصعب مخالطته والعيش معه : لكن مواهبه ، واستقامته ، وشجاعته ، والسمة المأساوية لحياته تفرض ليس الاحترام والاعجاب فقط ، بل والحنان الودود الذي نشعر به تجاه إنسان عظيم حقاً .

فهرست

الموضوع	الصفحة



المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع

ISBN 9953 - 427 - 20 - 8